

أقرأ

سلسلة ثقافية شهرية

تصدر عن دار المعارف

[٣٠٦]

رئيس التحرير

رجب البنا

نائب رئيس التحرير
حمدى عباس

مدير التحرير
كريمة متولى

مدير فنى
شريفة أبو سيف

تصميم الغلاف
الفنان شريف رضا

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ - E-mail: maaref@idsc.net.eg

الدكتور حسين فوزى

سندباد فى رحلة الحياة

الطبعة الثانية



دار المعارف

اقرا

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا في شيء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحيها .

طه حسين

فى ضباب الذكريات البعيدة

لم أكن بلغت السادسة من العمر، أو ربما الخامسة، عندما وعدنى والدى بالتوجه سوياً لمشاهدة أهرام الجيزة وأبى الهول. بيد أنى أذكر ذلك اليوم أكثر مما أستعيد وقائع أهم وأقرب إلى الحاضر فى حساب السنين، ولا يمكننى - مع هذا - التوكيد بأن رحلة الأهرام وأبى الهول وحدها مسئولة عن اغتباطى بالنزهة من وسط القاهرة المعزية. كنا نسكن حينئذ أمام مسجد سيدى الشعرانى - ونسميه الشعراوى - حتى أطراف العمران، على حافة الصحراء، ربما كان مبعث سرورى هو ترقب نزهة خلوية، كانت تعد سفرًا طويلًا بالنسبة لى. وكنت مثل كل أطفال ذلك الزمان أحب ركوب «الترام» أكثر من عربات الخيل، «والأتوبوس» أكثر من «الترام». أما القطار فكان يمثل لمخيلتى متعة العمر وأنا أراه ينفث دخانه ويزفر ويصفر ويزمجر: «توت توت، تشك، تشك، تشك، تف، تف، تو.. و.. ت!».

جاء اليوم الموعود، يوم جمعة، فصحوت من النجمة والجميع نيام، وأنا أحس فى تلك السن الباكرة أننا أسرة عنيدة، أفراداً وجماعة. فما إن رأيت الشمس ترتفع فى كبد السماء والأسرة مازالت نائمة حتى خشيت أن تسوق «العند» وتعطل رحلتى المرتقبة. وبعد استيقاظ الجميع، ظل الوالد نائمًا وليس هناك من يجسر على إيقاظه، ممن لهم عليه بعض السلطان.

وبعد الساعة الحادية عشرة سحبنى والدى من يدى وخرجنا..
أخيراً.. لنقف عند الحلاق ! ماذا تصنع إرادة طفل ؟ ماذا لو انسقت
لعنادى وركبت رأسى، وطالبت بالعودة إلى المنزل لأمارس ألعابى
الكثيرة ؟ لأننى أعرف دكان ذلك الحلاق أمام محطة ترام الخليج
المصرى المسماة «خميس العدس» ونسميها «خميس عتس». لم تك أول
مرة يصحبنى إليها والدى، وأعرف أن الوقت يضع هناك بين مرأتين
كبيرتين متواجهتين، تعكس كل منها الأخرى فيتحول الحانوت الذى
يشبه شق الثعبان.. إلى نوع من بهو المرايا الذى فى فرساي. صاحب
الصالون يونانى، وزبائنه خليط من المصريين واليونان والطليان والأرمن،
وكل من يجود به درب الجنينة ودرب البرابرة من جاليات أجنبية..
محترمة، وليت الأمر يقتصر على حلاقة ذقن أو تصليح شعر - هذا إلى
أن صاحبنا الرومى كان على نقيض حلاق اندرسن فى إحدى قصصه الذى
أثر عنه أنه «يخلق للأرنب فى عدوه» - فقد عرفت بالتجربة أن ضروباً
من المناقشة تنشب ولا تنتهى بين «الأسطوات» والزبائن، حول أمور لم
أفقه منها شيئاً ولا يعنينى أن أدرك منها فتيلاً.

وربما كان هذا هو السبب الذى طبع فى ذاكرتى بعض الصور التى
تزين الحانوت بأعلى المرايا، وهى صور لم أفهم قصتها إلا بعد ذلك
بسنوات غير قليلة. صورة تمثل سيدة تلبس ملابس قومية - يونانية كما
عرفت فيما بعد - تجلس ساهمة تعتمد رأسها بيدها، بين أطلال أبنية

ذات عمد سامقة متناسقة تشمخ بتيجانها فوق ربوة - البارتيون فوق
الأكروبول كما عرفت فيما بعد - وإلى جانب من الصورة جندي من جنود
الأفزون لابسي الفستان القصير. وأحسب الآن أن الصورة من آثار حرب
تحرير اليونان في النصف الأول من القرن الماضي، وما تلا الاستقلال من
استنهاض الهمم لاستعادة مجد الإغريق الأول بناة الحضارة.

والصورة الثانية تمثل محارباً يلبس الخوذة اليونانية القديمة
ذات العذبة الحمراء، ويركب عربة حرب ذات عجلتين، يقف فيها
ويسوق جوادين ركضاً، وتجر العربة وراءها، وتجر جر في التراب،
رجلا عارياً، ميتاً، ربطت رجلاه بمؤخرة العربة، وانطرح جسده فوق
الغبراء.. إنه منظر النشيد الثاني والعشرين من الإلياذة، يصف فيه
الشاعر اليوناني الأكبر بطل ملحمة أخيليس، وقد انتقم لمقتل خدنه
الحبيب فطروكليس بسيف «هكتور بن فريام» ملك طروادة. فقتل
«هكتور» وراح يرمغ جثمانه في الرغام، وهو يدور بعجلته حول
أسوار «اليون» الحصينة.

«وعندما بلغت الأسوار، حيث احتشد الرجال، ارتقت «اندروماك»
أحد الأبراج، وألقت ببصرها تتبين ما يجري فوق الساحة ورأتهم
يسحبون زوجها «هكتور» على مرأى ومسمع من المدينة - كانت
الجياد تسحبه في خيب يسير، نحو مرسى سفن الإغريق من آل اخايا»
- الإلياذة: من النشيد الثاني والعشرين.

والمنظر الثالث يصور وداع «هكتور» لزوجته «أندرومات» (فى الفئشيد السادس) قبل أن يخرج للقتال، فلا يعود. فالوصيفة تحمل الطفل «اسكامندر»، ويسميه الجميع «استياناكس»، وينفر الطفل من مرآى أبيه بخونته ودرعه وسلاحه. وربما كان هذا الموقف، وموقف فريام يجثو أمام أخيليس فى خيمته، يستعطفه، ويرجوه أن يسلم رفات ابنه هكتور، هما أروع ما فى الإلياذة، على كثرة ما تحتويه من روائع.

كانت تسليتى الوحيدة إذن، وأنا أحرقت الأرم «الأضراس» غيظًا وتشوقًا لرؤية أهرام أجدادى، أن أجول ببصرى لأشاهد آثار أجداد الحلاق اليونانى.. ولكنى بطبيعة الحال لم أك أعرف فى ذلك الزمان أن تلك الصور تمثل أمجاد أسلافه، ولا أننى أذهب فى ذلك اليوم البعيد لأول مرة، إلى مقابر أسلافى - أو على الأقل ملوك أسلافى - فلاشك أن البون بين خوفو وخفرع ومنقرع وبينى هو البون بين الحلاق اليونانى بقنطرة «خميس عدس» وأخيليس وأجا ممنون وإياس بن تلامون وديوميدس وأوديسيوس ابن لايرت.

وسحبنى والدى من دكان الحلاق.. أخيرًا.. إلى مطعم! وكان فى ذلك بعض الصبر والعزاء، فأنا منذ الطفولة الأولى أفضل الأكل السوقى على الطعام البيئى، ويشاركنى فى ذلك الصديق رائد القصة المرحوم طاهر لاشين. عندما كان يعقد المقارنة بين كنافه البيوت، وهى تخر ساجدة من السمن والسكر المعقود والمسحوق.. وبين كنافه الكنفانى

تذوب خفة !... ولا أنسى يوم وصف لى فلاقل البيوت وكأنها حجر
الرحى، لا فى منظرها فحسب بل فى رسوخها على القلب. أو عندما
كان يسمى «لقمة القاضى» البيتى، «طقة القاضى» ويزعم بأن واحدة
منها تشبع محكمة بحالها.

وبعد العصر، بدأنا رحلتنا الطويلة بين العتبة الخضراء والأهرام،
على خطين: أحدهما كان واحداً من أول خطوط الأتوبوس فى تاريخ
القاهرة، نقلنا من العتبة الخضراء وفوق كوبرى قصر النيل القديم،
حتى بلغنا كوبرياً خشبياً، سمعت اسمه العجيب لأول مرة: الكوبرى
الأعمى (أى كوبرى البحر الأعمى، وهو كوبرى الجلاء حالياً) وكان
بر الجيزة فى ذلك الزمان هيشاً وقصباً يشبه الحرج الاستوائى، والترام
أخضر اللون، ويسير حتى الأهرام على قضبان مفتوحة، أى كقضبان
السكك الحديدية. ويخترق شارع الهرم فى وسطه تماماً، وعلى جانبى
الطريق أشجار باسقة وارفة الظلال، وراءها المزارع مترامية الأطراف،
إلا وقت الفيضان حين يمتلئ حوض كرداسة بالماء، ويسير الترام
الأخضر على جسر فوق بحيرة واسعة الأرجاء.

وكلما اقتربنا من الأهرام كبر جرمها وقد بدت فى مخيلتى أولاً فى
حجم صورتها على طابع البريد. ثم شبت عن الطوق قليلاً عندما بدأت
أراها من بر الجيزة، ثم اكتشفت وأنا أقترب منها أنها ليست مسمطة
ملساء، كما تبدو فى صورة طابع البريد، بل هى صخور بعضها فوق

بعض طبقات. وعند وصولنا كنا فى «صقار شمس» فلم يبق لنا إلا أن ندور حولها وبينها. وحتى معبد أبى الهول لم ندخله لأن «العرب» كما كنا نسمى أهل المنطقة، اختلفوا فيما بينهم عن يفتح باب المعبد ويصطحبنا، ورأى الوالد أن نعدل عن زيارة المعبد فى سبيل إعادة الوفاق إلى الصف العربى، وربما خوفًا من أن تنتهى خناقتهم على حسابنا. ولم أعد لزيارة الأهرام إلا بعد دخولى المدرسة الابتدائية، حيث علمونا أن أول ملوك مصر كان اسمه مينا أو مصرايم، وأنه غير مجرى النيل.. وأن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار. وهو أسخف بيت عرفته طول حياتى لأن عجزه نوع من الزائدة الدودية.

ومنذ ذلك اليوم البعيد جدًا، وأنا أحمل فى ذكرياتى، وأحتفظ فى ركن من قلبى بحب عميق لحضارة مصر الأولى، وحضارة يونان القديمة. وعندما وقفت ذات يوم بمعبد «آفيا» على أكروبول جزيرة إيجينا وتطلعت من فوق البحر الأزرق إلى معبد البارثينون فوق أكروبول أثينا، رجعت ببصرى عبر البحر الواسع: بحر الروم، واستحضرت فى ذهنى صورة الأهرام وأبى الهول الرابض فوق ربوة الجيزة، أروع ما يكون بيانًا فى صمته الألفى.

رفقا أنجشه

كان خطر هواية الفنون علينا يتفاوت عند أهلنا: فالشعر لوثة مقبولة، لقربه من الكتابة والمحفوظات والرسم تسلية بريئة كلعب الكرة والتصوير بالألوان المائية، وداهية التصوير بالزيت ذات تكاليف وأعباء لا يبتسم الأهل لها. ونقترب من منطقة الخطر عندما نهوى التمثيل - برغم صلته بالكتابة والمحفوظات. ولكن الطامة الكبرى كانت غواية الموسيقى.

وقد تنقلت في صغرى من اللعب الميكانيكية «والعجلة» الثلاثية إلى الكرة، والتصوير الفوتوغرافي - كاميرا براونى بثلاثين قرشاً - والعرض السينمائي: لا أراك الله ذلك الصندوق الصفيح الأسود يضاء بمسرجة بتروول، وله فيلم واحد لا ثانى له، يدور على نفسه كقواديس الساقية، ويعرض «قصة» طفل جلس على حافة جدول يصيد السمك بسنارته، في حركة دائمة، يلقي السنارة، يرفع السنارة، يلقي السنارة، وهكذا «آد بريتيوام».

وابتسم الوالد لمحاولتى الرسم بالحبر الشينى أو الفحم الكوننتيه، أو بالألوان المائية. حتى إذا ما حم القضاء، وطالبتة بثمانين قرشاً ثمن أول كمنجة لى بفوسها، دخل فى دور «الحمراء» - أقصد الحمراء: مش ناقصنا إلا ده، عاوز تطلع آلاتى تدور مع السكارى والمساطيل».

السكارى وعرفناهم، إما المساطيل فقد تَسَاءَلْتُ نفسى من يكونون؟ ولم أجسر على الاستفهام، واكتفيت بالظن بأنهم نوع أضل سبيلا من السكارى، وإن كانوا أرفع مكاناً، لاسيما وأن اسمهم فيه تنغم فخم كأساطين وأساطيل.

وبرغم ذلك كان الوالد أوسع ذهنًا من طالب بالمعلمين المتوسطة كان يدرس خصوصيا لشقيقين من زملائنا، فعز على حماسه وتفانيه فى مهنته أن يبعزق جهده على زولين (شخصين). وحشد فصلا كاملا من فريق الكرة الذى يلعب مع الشقيقين فى حوارى البغالة. وشاء لى سوء الطالع أن أكون ضمن الفريق، فحاولت التملص ادعاء بأنى على الهامش - احتياطى فحسب - ولكن الأستاذ الطالب بالمعلمين المتوسطة لم يكن ممن يأخذون بالظروف المخففة، ويكره أن «يثير» عليه التلاميذ. وكانت دروسه نصفها علم «كل شن كان»، والنصف الآخر خطب رنانة فى الحث على الفضائل، والتمسك بالفرائض. وكان أيسر على نفوسنا منها أن يقضيها فى تقريعنا المباشر، وتوقيع عقوبات تفنن فى تصورها وإخراجها تفنن السينمائيين.

علم ذات يوم أننى أرسم بالفحم فما كان منه إلا أن حضر إلى منزلنا، قاطعًا المشوار من البغالة إلى فم الخليج على رأس وفد من الفصل البارد المرتجل الذى حشده بالزور وهواية التدريس، ليرى نموذجًا من رسوماتى. وكنت قد شرعت فى نقل صورة للملك لويس الرابع عشر، وانتهيت من «باروكته» الجعداء، وشاربه المفتول، والحذاء

ذى التوكة، وطرف السروال ذى الفيونكة. فطرت من الفرخ، وطلعت أدب، ونزلت أدب، ومعنى فرخ «الجرامون» الكبير بطيته الأسطوانية، سلمته للمدرس المتحمس. وحولنا زملاء يبتسمون زهواً، ويعجبون مقدماً بنبوغ واحد منهم على الأقل. وبدأ المدرس يفرد طية الفرخ متأنياً، وعلى وجهه ابتسامة عذبة، حسب حكمى السانج، وصفراء تبعاً لما تعلمت فيما تلا من الزمان، بل شيطانية بعد ما رأيت أشباهها على المسرح الغنائى تزين وجه إبليس المدعو مفيستوفيليس.

سألنى: أنت يا فوزى «صحيح اللى رسمت ده». وأجبت فى تواضع..
ومسكنة زائقة أيوه يا فندى !

- عفارم، عفارم ! وفى ثقة واضحة حسبما علمتنى السنون، أخذ يمزق الفرخ بالطول، ثم ضم نصفيه ليمزقهما سوياً بالعرض، توفيراً للجهد والوقت.

الواضح لى الآن أن أهلنا عموماً كانوا يعتبرون هوايتنا لبعض الفنون أمراً ذا خطر. لا بأس أن يلعب أولادهم الكرة ويركبوا حتى «الموتوسكل»، ويذهبوا إلى السينما والسيرك. أما أن يحبوا الموسيقى - أبشع الهوايات عندهم - فكان ذلك يشكل خطراً داهماً، من قبيل الخطر الذى يتهددهم عندما يحتجز الجيران رفيفات ألعابنا وراء الحجاب والنقاب، فتتحول وسيلة التخاطب بيننا إلى نوع من التلغراف الهوائى عن طريق النوافذ، من خلف الشراعات المواربة.

إحساس صادق من الكبار بأن الفن شيء ملء القلب والروح.. مثل
الحب والهيام.

أية سعادة تفعم نفسي وأنا أرى أطفال اليوم وغلمانه يمارسون
هواياتهم كلها بإشراف أساتذتهم وتشجيع أولياء أمورهم.. وأمورنا..
وهذا برغم الخطيب المفوه الذى لعنتى يوم جمعة من جمعات ١٩٥٦
عندما أهدت بإنشاء مدرسة للباليه، وبصرف النظر عما حدث فى
ثلاثينات القرن عندما شرد وزير للتقاليد - كيف فاتهم حينذاك
أن ينشئوا وزارة للتقاليد، لا أدرى - رهطاً فاضلاً من أساتذة معهد
فن التمثيل وطلبتة وطلباته.. صيانة للأخلاق، وصدوعاً بالأوامر
والنواهي، ونأياً بهم عن مصارع الشهوات.

ولقد وقفت فى الصيف الماضى على شاطئ البحر فى بلطيم أتأمل متحفاً
رملياً أقامه تلميذ على حافة البحر من الرمال المبللة، وأحاطه بسياج
من الليف. كان متحفاً يمثل عقلية العصر أكمل تمثيل: لم يكتف الفتى
بتمثال فتاة مستلقية على الرمال وصياد أم الخلول، بل صور مفارقات
عصره فى تمثال للجمل، سفينة الصحراء، إلى جانب الطيارة النفاثة.
وتمثال للمركب الشراعى، فى مواجهة عابرات المحيط، والطرادات. وقد
عجزت عن فهم تمثال منها، فابتسم الفتى ابتسامة الأستاذ أمام تلميذه
الخائب، وتنازل يقول معاتباً: هذا صاروخ جاجارين!

سلمت على الفتى الفنان، وقد هنأته بكلمة «عال» واستأنفت مسارى،
وإذا كلمة «عفارم» تصعد من أعماق الذكرى تضيئها ابتسامة صفراء،

وتصطحبها ضحكة واثقة. وقد نسيت، أو تناسيت خجلا، أن أحدثك بالصفحة المدوية التي نزلت على خدى من ذلك الأستاذ المحترم، علمت منها أن احمرار العين «طق الشرار» من العين ليس صيغة من صيغ البلاغة، عقاباً لى على هواية الرسم، وإن كان عقاب لويس الرابع عشر حينذاك أقسى على نفسى، وربما على لويس أربعة عشر نفسه، لأن ما حاق به كان أشد مما نزل بحفيده لويس السادس عشر فى ميدان الثورة. لقد أعدمه المدرس الخصوصى على طريقة الممالك، وهى التوسيط، ثم قسمه أربعاً وكأنه ينوى أن يوزع أشلاءه على أربعة مفارق.

أثارت هذه الذكريات إجابة صغيرة بليغة، مخيفة، طالعتها منذ أيام، صدرت عن مراهق يمارس هواية فنية ويبرع فيها:

- هل تؤثر هوايتك على متابعة دروسك ؟

- بعكس ما تظن، فهى تحضنى على مذاكرة دروسى، لأبلغ هدفى الفنى على أساس متين من الثقافة العامة.

- وما موقف والدك من هوايتك ؟

- كان يحاربها فى بداية الأمر، ولما أخذت هوايتى تُدرُ على أجراء، بدأ يشجعنى، وتطور إلى أن أصبح يؤنبنى إذا أهملت هوايتى بعض الوقت. آه لو كان الفقر رجلاً ! فلست مستعداً أن ألوم هذا الوالد. ماذا يكون غرضه من إرسال ابنه إلى المدرسة إلا أن يهيئ له وسيلة لكسب عيشه. فإذا تحقق له ذلك أيام التلمذة، فأى بأس من ذلك ؟

وأهلونا لم يكونوا أثرياء.. وكانت هواياتنا تكلفهم مالا. وأخشى أن أقول فأظلم الجيل الحاضر: كان أهلونا يخافون علينا من بعض الهوايات. أما إذا بلغ امرها أن نكسب من ورائها مالا، فقل يا رحمن يا رحيم. كان ذلك ضعة ما بعدها ضعة، وهواناً يفوق كل هوان. كانت مبالغة في الحالين، ومغالاة من الجيلين ولكن.. رفقا انجشة بالقوارير !

غرام فى السيرك

هذه

قصة من صنع الخيال إن شئت وإن شئت فهى من ذكريات الطفولة وما بعدها قبل المراهقة. فأين الحقيقة من الخيال؟ ومن يضمن لى ولك أن تكون من قبيل هذا أو ذاك؟ فلنوجه عنايتنا إلى صياغتها كأقرب ما تكون إلى الواقعية، ولعل الشعر فيها ينأى بها إلى أبعد من الحقيقة.

بدأت وقائعها فى السيرك الوطنى تعلق الحاج سليمان، يجيئنا كل عام فى مولد السيدة زينب، وينصب عمده وأساقيله وخيامه فى باحة من باحات الحى.

وكان ارتيادنا للسيرك - نحن تلاميذ مدرسة محمد على الابتدائية بشارع مراسينة - يغير من رتابة ملاحظتنا تغييراً جذرياً. فما كان أقلها فى ذلك الزمان البعيد!!! أهمها السينما فى مطالعها البدائية بالقاهرة، ثم لعب الطرة والكرة. إلا حينما تمتد ملاهى المولد على طول شارع السد البرانى، فيتحول الشارع - وكان يتوسطه مقام سيدى السدى، قبل أن ينتقل إلى مكانه الحالى عند أول شارع مدرسة الطب - إلى استعراض الفولكلور المصرى بأنواعه! خيال الظل والقررة جوز، وملاعبى الحيوانات العجيبة: النخس سمكة

والنصر بنى آدم (سمكة قشر بياض عظيمة تتكلم لدى خروجها من الماء.. عن طريق بطن صاحبها الفنتريلوكي) ومصارعة (بالسين فى لغتهم) حيوان (كانجرو) يصفه الملاعب بأنه له ذيل تماسح، وجسم أسد، ورأس حمار، والشيخ عبد الله، وصل من بلاد الهند والسند رأساً بلا جسد، يتكلم بلسان عربى فصيح، يشرح حاله، وما يأكل وما يشرب. فيسأله الملاعب كيف تنصرف فضلات طعامه وشرابه؟ «يطلع على وجهى عرق» (بالقاف الساكنة). وكل هذا ليس من الفولكلور، وإنما كان هناك المداح والراوى والشاعر بالربابة والأدبى والحاوى، وجماعة المحبطين والمغذلكين، ممن يجمعهم الجبرتى فى «طائفة الخردة».

كننا نرتاد تلك الألاعب لماماً، أما السيرك فكان لازمتنا ليلة الجمعة من كل أسبوع، نشاهد الحاجة مريم تمشى على الحبل بالزانة، والأسطوات على وفايق إخوان يرقصون على الحبل والسلك بدون زانة والبلياتشو عثمان بطرطوره الأبيض ووجهه أبى دقيق، والعفريته المشغولة بالورد الجورى.. يقع من على الحبل، أو السلك، ويفترش البساط الأحمدي كالزكينة ثم ينهض ويؤدى حركة الإعجاب الذاتى بيديه وذراعيه، كما يفعل عادة رجال السيرك، ويضيف إلى ذلك قوله «براوة عليه»، وآكل النار، والخواجة ماركو لاعب العقلة الأرضية، وعاكف البهلوان، وزنوبة بهلوانة العقلة الطائرة.

والفارسة جليلة تركب الحصان وهي واقفة على ظهره وهو يدور حول الحلبة، تطير في الهواء وتتشقلب وكأنها فوق أرض منبسطة. وأخيرًا الفصل المضحك بطله «الجن نار» «الجنرال» وقد نسيت أنواع المقالب التي كانت تنصب له، وغير ذلك من طرائف تبهرنا تحت أضواء «كلوبات الجاز ذات الرتينة والوش»، وعلى صوت موسيقى نحاسية تعتلى منصة خاصة. كم كان سنى حينذاك؟ لا أذكر بالضبط لأننى لا أعرف متى عشقت فتاة السيرك. هل كنت فى السنة الثانية الابتدائية أو الثالثة. وفى كلتا الحالتين لا يمكن أن أكون جاوزت الثانية عشرة فالمؤكد أننى انتقلت إلى المرحلة الثانوية فى الثالثة عشرة من عمري.

أقول عشقت بكل بساطة، مثلما أقول لعبت الكرة البلدية المسماة «قره وسنو وكحكو إلخ» مع أن الأمر كان أعمق من هذا بكثير، كان هيامًا ووجدًا بحق. وموضوعه لاعبة السيرك الإيطالية أماليا من أسرة فانوتشى الأب والأم والابن والأخت الكبرى ليزافانوتشى. ولا حاجة لنا بوصف ألعاب آل فانوتشى، أو جمال ليزا وقد اكتملت أنوثتها وكان وجهها حقيقًا بأن يقول للقمر.. إلخ.

أماليا كانت فى سنى، وربما أكبر قليلا، كوكبًا دريًّا بعيد المنال على غلام فى سنى وحتى على من هم أكبر من سنى.

ويمكن أن تنتهي القصة هنا بحب دون أمل، وننصرف إلى وصف
آلام النوى والبيعاد والجوى والسهاد، وترقب يوم الخميس كأنه
يوم الميعاد.

كان الصبى من خشب الأشراق، سريع الاحتراق، راح يسلك
طريق المستحيل للتقرب من الحبيبة، والمستحيل فيما رأى لا يحققه
إلا السحر، والتماس المعونة... من ميمونة، وخادمها دهنش. وصنعة
السحر مرصودة في كتب صفراء، تباع عند الكُتبية بالحلوجى. فاقتنى
منها كتاباً أو كتابين من مؤلفات أبى معشر. طالعتها من أولها إلى
آخرها دون أن يبلغ بغيته. أنى له بقلب هدهد يتيم أو ديك أسود
لا غباشة فيه؟ وما هو حجر دم الأخوين يبخر به مع عين العفريت؟
وكيف يجسر على ولوج قبر مفتوح يحمل منه عظمة ميت ويخرج من
القبر بخطى القهقري، حين يواجه عفريت الميت إذا تصادف وطلع
له؟ وإذا تمكن - فرضاً - من دفن بيضة بين أربعة مفارق، بعد أن
«يُعزَم» عليها وينقش التعاويذ فوق قشرتها.. بدم غزال، فكيف يحفر
عليها بعد أربعين يوماً، ويحملها إلى مكان خرب، ثم يفتحها ومعه
سكين حاد يذبح به الكتكوت الفصيح قبل أن يصيح، وإلا فالغلام هالك
لا محالة إذا هبشه كتكوت الجن:

هذا وكثير غيره طالعه فى كتب السحر والشبشية تحت أبواب
المحبة والقبول وانتهى إلى الوسيلة الوحيدة الميسرة:

كانت وصفة لا تكلف إلا جهداً - قراءة سورة الجن على وريقات
عادية (وليست من الكاغد) يخط على كل منها حرفاً من حروف الهجاء
حتى تكتمل الأبجدية، وينقش على كل ورقة اسمه واسم أمه واسم
المحبوبة والسيدة والدتها، وبما أنه لا يعرف اسم المحترمة فقد
اكتفى بكتابة أماليا بنت فانوتشى معتمداً على أن الجن لن يفرق بين
اسم الذكر والأنثى فى تلك اللغات الأجنبية.

ويكتب تعويذات بلغة غير مفهومة لعلها السريانية يجيء فيها
اسم شهورش بن مقارش والغالب أنه سلطان الجن.

وتصور أن يقرأ الصبى سورة «قل أوحى» كاملة بعدد حروف الهجاء
ومع أنه كان قد نسى الكثير مما حفظه عن ظهر قلب من كلام الله،
بكتاب سليمان جاويش، والكائن فى أول الخرنقش، فقد استعادت
ذاكرته السورة بعد تلاوتين أو ثلاث، وواصل تسميعها تسعا وعشرين
مرة، حتى جف حلقه، وكاد يسقط إعياء إلا أن أدركته رحمة ربه.

والوصفة تقول بحرق الأوراق كلها، مع ترديد تعاويد سريانية،
وحمل الرماد إلى أعتاب المحبوبة.. ويكفى أن تخطو فوق الرماد، حتى
يجمع الله بين الشئتين بعد ما.

ذهب إلى بيت آل فانوتشى، فإذا غلمان الجيران يلعبون فى باحة
قائمة أمام منزل أماليا، والبيت المجاور. لم يجرؤ على أن يذر الرماد
أمامهم، فهى حركة غير معتادة أن يفرش الإنسان عتبة عريضة برمال

ورق محروق. وراح يتحكك بهم ويشاركهم ألعابهم وكان بطلا من أبطال لعبة العصفورة.

ولا يبتئسن القارئ إن جهل أمر هذه اللعبة المشهورة، لأن معرفته أو جهله بها لن يغير من مشيئة القدر.

تناول المضرب الخشبي وأطار العصفورة لفريقه، حتى كادوا يبلغون بها سيدي الطيبي في اتجاه الجنوب الغربي، وأطار الفريق الآخر العصفورة حتى أعادها إلى قواعدها، ثم دفع بها الصبي في اتجاه الشمال الشرقي حتى كاد فريقه يبلغ بها سيدي الحبيبي. ولم تكن الطرقات في تلك الأزمان الغابرة تعرف سوى عربات الأجرة والكارو وحمير السوق في الليل بعد توقف عربات سوارس والترام. أما السيارات فكانت كالكبريت الأحمر، لا يركبها سوى البرنسات والبرنسات يسمعن طول حياة أسرتهن، حتى انصرام حبلها، بالأسياذ السد البرانى والطيبي والحبيبي فلم يكن من المنتظر أن تعبر سياراتهن بالحى العتيد.

كسب فريقى، واعترف الفريقان لى بالسبق.. كل هذا وقبضة يدي اليسرى منضمة على رماذ التسعة والعشرين عفريتاً الموكلين بقيادة المحبوبة حتى تجيئنى منقادة تجر جر أذيالها.

وانصرف الغلمان، وشرعت في ذر الهباب، فوق أعتاب الأحباب.. فرفض أن يذر، وقد تحول من طول الحبس إلى قرص صغير متجمد.

فركته فما استقطعت، يساورنى الشك فى احتفاظ الشبشة بقوتها الذرية. توقعت أن الجن سوف يتكعبل وهو منطلق من لبخة الرماد بأقدامه المشقوقة كحوافر الماعز. وربما لصقت بالرماد الندى كما يلصق الذباب بأوراق الصمغ التى كانت تستعمل فى أيامنا بدل الفلاى توكس.

تلبثت مع غلامين من أهل البيت المجاور لمسكن أماليا فانوتشى، وقد أطلت علينا سيدات الأسرة يستغيبن الصغيرين فأشار الأكبر وكان فى مثل سننى، إلى صاحب الجديد، وأمرت كبيرتهن أن يصعدا ومعهما الغلام الذى كان أنا. وكعادة السيدات أخذن يسألن عن اسمى واسم أبى وصنعتة وأين أسكن وبأى مدرسة أتعلم. واصطفتنى الأسرة، وغالبيتها سيدات وبنات كابن من أبنائها.

وكانت الأسرة، تبعاً لسماحة الطبع المصرى، قد اصطفت أسرة فانوتشى تجئ كل مولد، وتقطن المنزل المجاور، فكانت أماليا واحدة من بناتها. وأصبح سطوح البيت ملتقانا نحن الصبية والبنات، فى «التبات والنبات» كما يعلم العارفون بالأمور.

وجاء لقاء الغلام بصبية السيرك سابقاً على النظرة والابتسامة والسلام، كما جاءت القبلات فى وضعها الصحيح من عالم البراءة والطهر.

وأصيب الصبى ليلتها بحمى، أشبه بدور الملاريا، فلم ينم إلا قرب الفجر غير مصدق لما جرى فوق السطوح بينه وبين تلك التى كان يراها

مساء كل خميس بالمايوه الأبيض، والبلوزة المرصعة بالكلفة، والشعر الفاحم مجموعاً في «بندور» وخصلات لولبية وكلوبات الرتينة تنشر أضواءها الفضية على الأذرع الطويلة البضة، والجيد الجميل، والوجه الأقرم.

والموسيقى النحاسية تعزف لحناً على إيقاع عرفته فيما بعد باسم إيقاع الفالس ثم تسكت فجأة عندما تتأهب ليزافانوتشى للقفز على اللوحة المقامة مثل قبّ الميزان على كرسى هرمى الشكل فى وسطها (والأصح أنه على صورة منشور هندسى) وهنا ينقر ضارب الطبل العسكرى الصغير نقرات سريرة تثير التأهب فى رهبة، لطيران أماليا فى الهواء، عندما تهبط أختها ليزا على طرف اللوحة المرفوع. وتدور أمامنا فى الهواء «شقلباظاً» واحداً لتنزل واقفة على كتفى أخيها، «المشعلق» فوق كاهل السنيور فانوتشى. وفى المرة الثانية «تتشقلب» أماليا فى الهواء دورتين، لتنتهى واقفة على كتفى الأب وحده..

وتنطلق الموسيقى بلحن المارش الحماسى يغطيه تصفيق المئات الجالسين على ألواح خشبية باستدارة «الصوان»، فيما يعرف بأعلى النياترو. وقد يفزع غلام من نومه فيسقط من مقعده إلى الخلف أو الأمام، وتصفيق البكوات والسيدات فى اللوج المواجه للوج الموسيقى، وغلمان المدارس بالدرجة الأولى حول الحلبة (بقرشين صاغ).

وبعد «نمرة آل فانوتشى»، كانت أماليا وليزا تدوران حول الحلبة،
وتصعدان إلى اللوج لتبعا صور الأسرة مجتمعة، بملابس البهلوانات،
وصورة الأختين، تستند كل منهما إلى الأخرى فى تكوين فنى.

وهذه هى الصورة التى لم يحتفظ بها الغلام العاشق طويلا، لأن
الشيخ «ش» ضبطها فى كراسة التطبيق، أو كتاب «الفوائد الفكرية»،
فاستولى عليها، وأخرجنى لأقف ووجهى إلى الحائط.. بين خريطتى
آسيا وإفريقيا.

واستمرت العلاقة طوال بقاء السيرك الوطنى فى الحى، حبا عفيفا
بين التلميذ الصغير وصبية السيرك، وتواعدا على اللقاء فى المولد
المقبل، إن شاء الله.

وانتقل الغلام إلى الفرقة الأعلى، فى أول القائمة، وحل موعد
المولد، وعادت أسرة فانوتشى مع السيرك كالعادة. وهنا خبر الصبى
حقيقة من حقائق الحياة والفسولوجيا، لم يفسرها إلا بعد سنوات
من تلك الوقائع، وهى أن الفتاة تنمو مبكرة عن الصبى، فقد عادت
أماليا إلى جيرانها شخصية جديدة نامية، والتلميذ كان غلاما..
متخلفا.

كانت أماليا مؤدبة معى، ذلك الأدب الأوربى البارد كالثلج. وكان
الواضح من حديثها أنها تنظر من عليائها، وقد اكتملت أنوثتها، إلى
صبى تقدم من لعبة العصفورة.. إلى الكرة.

بعد أعوام طويلة، وكنت في أوروبا حدثتني زميلة سويسرية عما لاحظته في مدرستها الابتدائية بزوريخ أو بال - وكانت مدرسة مختلطة - من أن البنات متقدمات جنسياً على الغلمان. ففي حصة «الكاتشزم» وهو درس الدين يلقن عن طريق الأسئلة والأجوبة، كان المدرس يسأل الفصل سؤالاً من الإنجيل:

ماذا فعل سيدنا زكريا وزوجته اليصابات ليرزقهما الرب بطفل في شيخوختهما؟ وكانت الإجابة التي يردها الفصل كله: «كانا يصليان!» تقول زميلتي السويسرية: كان الشرط المذكور من الفصل يردد الجملة التقليدية بجدية وإيمان.

أما الشرط المؤنث فكان يردد الكلمتين: «كانا يصليان» ثم تتضح الفتيات في أكمامهن. أما إذا أدار المدرس ظهره «فهات يا كر»!

كشك الموسيقى

لا أدرى إن كان كشك الموسيقى قائمًا أو راح في خطوط التنظيم؟. فحديقة الأزبكية التي حلت في تاريخنا الحديث محل بركة الأزبكية، والتي أنشأها ونظمها في أواخر حكم إسماعيل، مديو باربييه، مدير حدائق باريس، ابتلعتها حاجات العمران وازدحام حركة المرور، وكان قضاؤها أمرًا مقضيًا، تلسك الحديقة التي عرفناها في أخريات أيامها قبل أن يتحول ذوقنا وتقديرنا للجمال، فنذور فيها نقض أطرافها، وننتف ريشها، ونقتلع أشجارها، حتى انتهت إلى أشلاء خضراء وسط خضم من السيارات والأتوبيسات.

نعود بالذاكرة إلى بضع سنوات عندما بدأت مصلحة التنظيم القديمة تتحدث عن إزالة سور الحديقة العالي، واستبداله بسور قليل الارتفاع، وعندما ألغت رسم الدخول. ولم أك في ذلك الزمن البعيد أدرك بعد سبل تحايل المصالح العامة على الرأي العام، فحملت تلك الإجراءات على محمل من الديموقراطية التي لا تكلف الإقطاع وحكوماته إلا قليلا. ثم نسمع بعد هذا حديث فتح ممر، أو متنفس لحركة المرور، ويختفى بالطبع نتيجة لهذا أشهر باب للحديقة، وهو الباب الغربي.

وتحل الطامة الكبرى عندما تقترح إحدى مصالح الحكومة إقامة بناء لها وسط الحديقة. وكانت تلك ضربة المعلم، «نوكاوت» للحديقة التاريخية. وعندما تتجه إلى ميدان الخازندار، أرجو ألا يفوتك تقديم فروض الإعجاب بذلك البناء الشامخ الذى وضع حديقة الأزبكية فى جيبه الخلفى، وهو واحد من أبنية ثلاثة أو أربعة تحسب عندنا من قبيل ناطحات السحاب، ولو أن البناء الذى أشير إليه لم ينطح سوى الحديقة العجوز، فخرت تحت أقدامه صريعة.

ومع ذلك فلا أكتب هذا لأبكى على الظل البالى «بين الدخول فحومل». فليس ثمة أطلال والحمد لله، بل عمارات شاهقة وحرارات فسيحة، وخضرة سقيمة هنا وهناك، وأشجار شائخة تنفلق عن أرصفة، وتظل محطات «نقل عام» إلى كل الجهات. وتمثال وطنى عظيم يبدو وسط هذه الحركة الدائبة التى نجحت فى أن تصيب بالدوار نصبا من البرونز.

إنما أكتب عن كشك حديقة الأزبكية قبيل ثورة سنة ١٩، وفى السنوات التى تلتها مباشرة.

عرفت طفولتنا ومراهقتنا الحديقة الشعرية فى كل عصر من أيام الجمع، بسبب ما يقدم بالكشك من موسيقات عسكرية. ولم تكن نسميها كذلك، لأن الفصحى لم تكن بدأت زحفها بعد على لغتنا البلدية. فكنا نسميها «المزيكة الميرى»، وهى تسمية غنية بالمعانى

الخفية : من أنها شىء مهندم فخم ، بالنسبة لفرق الموسيقىات الأهلية ،
من مزيكة حسب الله أفندى ، وغيرها .

وكان حول الكشك المستدير – أو الجوسق الدائرى ، بتعبير أبلغ وأدق
– عدد من الكراسى تؤجر بثمن زهيد ، لهواة الاستماع . ومن لا يحتكم
منا على دفتر شيكات ، كان يكتفى بالدوران حول الكراسى ، أو الوقوف
خلف آخر صفوفها ، ليستمع إلى أدوار «يا طالع السعد» و «العقويا
سيد الملاح» ، و «محمد لابس سيفه» ، وقد حولها موسيقيون – لاشك
فى براعتهم وقدرتهم – من أدوار غناء التخت ، إلى الآلات النحاسية
والخشبية ، دون أن يعبثوا بما فى أصولها من ثلاث أو أرباع النغمات .
ويمكن القول بأن تلك الموسيقىات «بططت» أسماعنا الشرقية الرقيقة ،
وعودتنا فى سن مبكرة على نغمات صريحة لا تعرف إلا المقام الكامل
ونصفه «هل تعرف أنت مثلا أن العشرة خردة هى ربع المليم ؟» .

كان الصول عامر غزال ، قائد الفرقة العسكرية ، حائزاً لاحترامنا
وحبنا ، عندما يعزف المؤلفات المذكورة وأشباهاها . أما حين تتخلل
البرنامج مقطوعات «إفرنجية» ، فقد كنا نحس ببعض القلق ، فعدم
الانسجام ، ونعزو هذا لغرابة تلك الموسيقى على أسماعنا ، ومالها من
ضجيج ودربكة .

إلى أن اكتشفنا فيما بعد السبب الحقيقى ، وهو ضعف الأداء لموسيقى
تتطلب دقة متناهية فى عزفها ، حسب اختلاف الخطوط اللحنية بين

شقى آلات الفرقة. وعلما بالصدفة أن فرقة بريطانية تحتل الكشك عصر
الأحد، ولم يكن يضيرنا كثيراً أن نستمع إلى موسيقى المحتل، فاحتلال
كشك بالنسبة لاحتلال بلد بأكمله، لا أظنه كان يتركنا جرحنا، لاسيما
وأن الجوقة البريطانية كانت تترضانا فى ختام حفلاتها بعزف السلام
المصرى، أو السلام الوطنى - وكان هذا اسمه من قديم ولم يعرف بغيره
إلا بعد أن أوغلت الرجعية فى حياتنا وسيطرت الملكية على أقدارنا.

الفرقة التى كنا نذهب لسماعها عصر كل أحد كانت «الولش
باند» وكانت - وأظنها ما برحت - من أحسن موسيقات الجيش
البريطانى. ومرد ذلك إلى أن شعب بلاد الغال (ويلز) أكثر شعوب
الجزر البريطانية موسيقية، بطبيعة نشأته، وتبعاً لتقاليد العريقة
فى الغناء الفولكلورى أفراداً وجماعة، والعزف على الصنج الولشى
(الغالى) القديم.

وأمام فرقة ويلز هذه أدركنا لأول مرة معنى القيادة الموسيقية، فلم
تكن مجرد تهويش بعضا، يبدو للناظر كأن القائد يؤمن على ما يجرى
من عزف، ولا يتوده.

كان قائد فرقة الغال يُجلس موسيقييه فى دائرة تستند إلى الحاجز،
ويقف هو بأعلى الدرج الذى يرقى إلى أرض الكشك. وصوت الآلات
واضح الرنين، وآلات تكف عن العزف هنيهة، ثم تدخل بدورها كرجل
واحد، ولكل مجموعة من الآلات ألحان تميزها عن ألحان المجموعة

الأخرى. واللحن الواحد تداوله الآلات فيكتسب من كل آلة لوناً جديداً. ويتشابه كل هذا دون إخلال أو هرجلة، وفي توافق لحنى تألفه الأذن الشرقية بعد فترة بسيطة، دون أن تعرف اسمه (وهو الهارمونيا). ثم أنت تحس بأن نجاح النظام معقود بطرف عصاة القائد فى يده اليمنى، وحركات ذراعه ويده اليسرى. العصاة منتظمة الحركة كبندول الساعة، إلا حين يريد لها إبطاء أو تعجلاً يتطلبه الأداء، واليد اليسرى تتكفل بشيء آخر غير رتابة الإيقاع، فهى التى تتحكم فى التعبير الوجدانى، ما بين أصوات تهمس همس العاشقين وسط الليل، وبين جهورة قد تبلغ هزيم العاصفة، وقصف الرعود.

تعلمنا حول كشك حديقة الأزبكية بعض مبادئ الموسيقى المتطورة وأساليبها، أى مقدار ما يدركه المرء بحسه، وملاحظته المباشرة، بعينه وأذنه، والسمع أهم، لولا أن النظر كان يطالع فى حركات قائد «الولش باند» كثيراً مما يجرى فى الموسيقى. كانت حركاته جميلة فى تناسقها، كأنها حركات الباليه، معبرة فى إيضاحاتها.

وانفجرت ثورة ١٩ ذات صباح من مارس، فتوقف العزف وطارت الفرق الموسيقية كلها. ولا أذكر متى عادت الحياة إلى كشك الموسيقى - إن كانت عادت ! - فقد شببت عن الطوق، وعرفت طريقى إلى الحفلات السمفونية بقاعتي الكورسال وسينما كليبر، يقود الأولى إدجار دو بونومى الإيطالى، والثانية ميشيل بوليا كين الروسى.

إنما كنت أشاهد الكشك الخالى، إلا من أطفال تلهو، كلما جلست إلى قهوة «سانتى» التى تواجهه، وهى القهوة التى لم نكن نجسر كغلمان الاقتراب من درجها، فهى مرتاد الكبار، أى من هم أكبر منا سنًا، لأن حكاية الثراء والوجاهة لم تدخل فى حساب توجسنا من الاقتراب. الكبار فى صغرنا كانوا يمثلون السيطرة علينا فى كل صورها: فى البيت والمدرسة... وحديقة الأزبكية.

وتحول كشك الحديقة، عقب هدوء المياه السطحية للثورة، إلى ما يذكرنا بقاعة النقابات فى الدول الاشتراكية. ثورة ١٩ كانت فى ظاهرها وباطنها حركة ضد المحتل، ثم تكشفت عن باطن أبعد غورًا. كانت أيضًا حركة تحول اجتماعى كبير. بدأت فى شكل تجمعات مهنية تطالب بحقوقها من شركات الاحتكار التى كانت تسيطر على كثير من مرافق البلاد. طالع صحف ذلك الزمان، لتعجب كيف أصبح لكشك حديقة الأزبكية «أجندة» بالاجتماعات التى تجرى حوله كل يوم:

عمال الترام، عمال شركة الغاز والكهرباء، شركة المياه، التليفونات، عمال الكنس والرش، جرسونات قهاوى عماد الدين، عمال الوفورات العاطلون، شركات السجاير.

هؤلاء وغيرهم من ساقطى «الكفاءة» إلى مستخدمى الدرجة الثامنة على النظام القديم. ومن عاملات ورش الخياطة إلى المطالبات بالسفور،

ومن أرباب المعاشات إلى أرباب السوابق وسكان العطوف للاحتجاج على قذارة حيهم، وسكان الحارات المظلة على الإسطبلات الملكية ببولاق للشكوى من رائحة البهائم. إلخ. . .

هؤلاء أو أولئك مدعوون للاجتماع يوم السبت، أو الأحد، أو الاثنين إلخ حتى ١٢ منه، بجوار كشك حديقة الأزبكية للتداول في شئونهم، أو للمطالبة بكذا وكذا، أو للاحتجاج على كذا.

ولم يكن للبوليس من تدخل أكثر من ترتيب تسلسل هذه الاجتماعات، والمحافظة على النظام فيها وحولها.

صفحة من تاريخ التطور الاجتماعي في أول العشرينات تكشف عن تحول الثورة ضد المحتل، إلى المطالبة بالحقوق المهضومة. وأتساءل اليوم - والشك ينهب قلبي - أكانت ما كيا فيلية الاحتلال هي التي توصى بغض النظر عن تلك الحركات الشعبية، كي تصرف الناس عن الاهتمام بقضية البلاد الأولى؟ إذا كان هذا حدث حقاً، فقد فوت الطلبة على المحتل غرضه لأن الطلبة لم ينفكوا في سنة ١٩، وفي العشرينات والثلاثينات، والأربعينات عن مطاردة الغاصب، ومحاربة عملائه.

ومع ذلك، فإن حقائق تاريخنا القومي في الثلاثين سنة التي أعقبت ثورة ١٩، وفي السنوات العشر التي مضت على ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢. كشفت لنا عن أمور لم نكن ندركها تماماً في فجر

شبابنا، وهو أنه لا الجلاء، ولا الاستقلال بغاية في ذاتها بل هما
أول الطريق نحو التحرر من ربة الاستغلال في الداخل ومن الخارج
على السواء.

وكشك حديقة الأزبكية يقوم في مخيلتي رمزاً لهذه الحقيقة التي
تجلت اليوم واضحة لكل ذى عينين، ويحس بها كل ذى قلب ينبض
بحب أم الحضارات.

ناظر المدرسة الحديثة

أهلية، بالجان، لم تكن تتلقى إعانة من وزارة المعارف مدرسة «التربية والتعليم حالياً» ولا من جمعية خيرية. ليس فيها تُخْت ولا سبورات ولا طباشير، وإن كان لها ناظر وضباط ورئيس - أى تلميذ أول. مات الرئيس - محمود ظاهر لاشين، رائد القصة المصرية، وذهب الضابط - أندريا غبريال. وأخيراً مضى إلى عالم الغيب ناظرها - أحمد خيرى سعيد، لا أدري متى، وفى أى مكان حتى كتابة هذه السطور. كل ما أعرفه أن يحيى حتى كتب يرثيه أخيراً فى صحيفة «المساء»، ولم أطلع مرثيته بعد.

لم يكن للمدرسة الحديثة مقر معلوم ولا أساتذة، ولا سجل بأسماء تلاميذها: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ سورة الكهف: الآية ٢٢.

كانوا يجتمعون فى كهف ترقى إليه بدرجات خمس أو ست. على ركن شارعى قنطرة الدكة وعماد الدين، يحمل اسماً له خطورته فى التاريخ الحديث: «قهوة راديو» حيث اجتمع عزيز عيد ويوسف وهبى ومختار عثمان يؤلفون فرقة رمسيس الأولى. ثم فى قهوة الفن

المشهوره بجوار مسرح رمسيس. وعند صالح الشربتلى بباب الخلق،
أو فى قهوة الكلوب المصرى بسيدنا الحسين، فى ليالى رمضان، وفى
«مسقط» بشارع محمد على فى بعض ليالى الشتاء.. ولكن مآبهم
وخلوتهم.. وتكيتهم مندره محمود طاهر لاشين بحارة حُسنى.

يذهبون شلة إلى كازينو دى بارى بقنطرة الدكة يناصرون محمد
تيمور وسيد درويش فى «العشرة الطيبة»، وإلى تياتروا برنتانيا
يؤازرون سيد درويش فى «شهر زاد» أو إلى كورسال دلبانى يشاهدون
باليه «أنا بافلوفا»، أو يستمعون للحفلات السيمفونية ولعزف
كبار العازفين، حيث يجلسون أو يقفون فيما كان يعرف بالمنتزه
«البرومنوار». أو يتشعلقون فى أعلى التياتروا بالأوبرا - فيما كانوا
يعرفونه بالسماء السابعة، قبل أن يسمعوا بأن هذا المكان الرفيع اسمه
عند الفرنسيين «الجنة» - ليشاهدوا ويسمعوا الفرق الغنائية التى
وفدت على مصر بعد الحرب العالمية الأولى.

لم يطلقوا على جماعتهم اسم «المدرسة الحديثة» تزعمًا ولا
تحديًا وادعاء، بل تندرًا وسخرية بأنفسهم وبتعاليمهم الثائرة.
فهم مدرسة السخرية بالحياة البرجوازية الرتيبة. اشتراكيون دون
انضواء تحت لواء، يتابعون أخبار ثورة لينين فى سنواتها الأولى،
وليس فيهم شيوعى واحد، إنما هكذا! حبًا فى الثورات.. لله فى
الله!

ناظرهم الأول والأخير: أحمد خيرى سعيد، عاد من فلسطين حيث عمل طبيباً عسكرياً لفرقة العمال المصريين المصاحبة لجيش «اللقبى»، وقد اعتملت فى نفسه ثورة عارمة على المحتلين المغتصبين وما صنعوا بأهلنا الفقراء فى الطريق إلى بير سبع وبيت المقدس. ولم يعد لدراسة الطب، بل انضم إلى صحافة «الحزب الوطنى» مؤمناً بمبادئه.

التلميذ الأول كان أكبر مقاماً: محمود طاهر لاشين، المهندس بمصلحة التنظيم «على سن ورمح» وأصغرنا سنًا وأشدنا طيشًا، طلاب بالمدارس العليا خرجوا من ثورة ١٩ ينشدون الحرية فى كل شىء فعرفوها ممثلة فى شخصية أحمد خيرى سعيد.

مخلصون لما كانوا يسمونه «المثل العليا» فى الفن والأدب. يطالعون ويناقشون الأدب الروسى العظيم قبل الثورة البلشفية، ويبحثون عبثاً عما جاءت به تلك الثورة من أدب جديد، ثم ينصرفون إلى الآداب اليونانية القديمة والإنجليزية والفرنسية والألمانية، إلا واحداً منهم - حسن محمود - أضاف إلى كل هذا اطلاعاً فى الأدب الإيطالى بلغته، ودراسة لحياة البابوات، والموسيقيين العظماء، وممارسة للموسيقى الغربية. كلهم نشئوا على معرفة قويمية بأدبهم العربى، ينادون بتجديد أنماطه وقوالبه، مع الاحتفاظ بسلامة اللغة، وإن ذهب بعضهم إلى المطالبة بالتححرر من قيود الفصحى فى الرواية العصرية، أو على الأقل فى لغة الحوار. كتب فريق منهم شعراً «حديثاً»، وعالج فريق

آخر الشعر المنتور - أو النثر المشعور فى لغة المدرسة الحديثة - ثم
تحرروا جميعاً من ربة الشعر المنظوم والمنتور سوياً.

مجهولون مجهلون، ينفزعون فى انطلاق فكر عجيب نحو التجديد
فى شتى مناحى الحياة المصرية، وينفعلون بتاريخ بلادهم كله:
فرعونياً، وقبطياً، وإسلامياً.

يشنون حملات للإصلاح فى صحف هزيلة منزوية، وكأنهم
يحاربون عمالقة فى صورة طواحين هواء. كأن يحملوا على استعراضات
نجيب الرياحى وأمين صدقى الفرانكو - آراب مما كانوا يعتبرونه
ابتذالاً غير جدير بأمة ناهضة - مثلما يفعل ثائرو اليوم بالأغنية
وفن الأغنية. ويسخر منهم الرياحى سخرية العملاق الخرافى فى
أساطير اسكندنافيا: يهوى عليه كبير الآلهة «أودين» بمطرقة الرعود
والبروق، فإذا العملاق يصحو من غفوته وهو يحسب أن ورقة ذابلة من
أوراق الشجر تساقطت على يافوخه «رأسه» فحسب !

أما أمين صدقى فقد جاء بثلاثة فتوات ومضى بهم إلى كعبة الفن
على رصيف شارع عماد الدين، وأشار إلى ناظر المدرسة، وقيل بأنه
لس كتفه بيده، ومضى إلى حال سبيله، وإذ بالفتوات ينهالون ضرباً
على المدرسة الحديثة كلها وضيوفها. ويطير طربوش الناظر وتخطف
عصاه.. وتتحطم نظارة هاوى الأدب الإيطالى، ويضيع منه نص موسيقى
ثمين وديوان دانتي. أما ضابط المدرسة فقد زاغ زوغاناً بحجة تأمين ظهر

ضيوف المدرسة المتقهرين. وهكذا تلقت المدرسة الحديثة درسًا في..
أدب الحوار.

ثم يفكر الناظر بأن قد حان الوقت لإنشاء صحيفة تتكلم باسم
المدرسة الحديثة فكانت جريدة «الفجر.. صحيفة الهدم والبناء»:
ورقة واحدة تطوى إلى أربع صفحات «الله ما يوريك» ! ينشر فيها
الأعضاء نقدهم وشطحاتهم ليطالعوها وبضع عشرة أو عشرين من
معارفهم الأقربين.

ويفكر الناظر بأن من رفعة مقام الصحيفة أن تكون لها مطبعتها
الخاصة. ولكن العين بصيرة واليد قصيرة، فيشترون بفلوس مهندس
التنظيم من سوق العصر وما إليه، مجموعة حروف يستأجرون لها
شيئًا يحملها على لوح عجيب، ويسيرون وراءها يشيعونها حتى
مثواها الأخير، وقرارها المكين.. بمندرة محمود طاهر لاشين...

وافترقت عنهم لأسافر بعيدًا في غربة طويلة. ولكن «طاهرا» يوافيني
بأخبار المدرسة «العتيدة» في رسائل أرجو أن أعثر عليها يومًا لأنشرها
صورة من أغرب صور التحرر والتطور في عشرينات هذا القرن.

أحمد خيرى سعيد كان ناظر المدرسة الحديثة دون منازع: أخذنا
عنه قلة الأدب، وعدم الاكتراث بمقامات الناس، والعنف في النقاش،
والزَعقُ في المجادلة والتشويح بالأيدى والرأس والأرجل ونحن نتكلم.
لا نحترم ميعادًا يضرب، ولا نلوم إنسانًا يخلف ميعادًا. الوحيد الذى

يملك ساعة فينا، كان المهندس طاهر لاشين: ساعة ذهبية تلقاها هدية من سلطان الزمان، بحكم أوليته لمدرسة المهندسخانة.

لا نعترف بوسائل المواصلات، تراماً كان أم أتوبوساً سيره لأول مرة بشوارع القاهرة سيد ياسين. يسكن ناظرنا بالعباسية ولكنه يعود إلى منزله هناك.. عن طريق السيدة زينب ليوصلنا إلى منازلنا ثم تأبى علينا المروءة - أو قل حدة المناقشة - إلا أن نؤوب إلى منازلنا بالسيدة.. عن طريق العباسية، لنوصل «خيرى سعيد» إلى المنزل العامر، وقد قارب الليل نهايته، وما الصبح ببعيد!

نطالع الملاحم الكبرى، بادئين فيها بهوميروس، ومارين بالشاهنامه، ومنتهمين إلى «الفردوس المفقود». نحب ونحترم محمد السباعى عقلا ولغة وشخصية. ونطالع مجلة «البيان» ثم يذهب بنا طاهر لاشين لنجتمع بصاحبها الشيخ عبد الرحمن البرقوقى، وقد جلس مع صديقه الحميم محمد السباعى بمقهى فى المواردى، لا نعرف له اسماً غير ما كناه به طاهر لاشين: «بار العفار».

ونقرأ بلزاك وديكنز وتولستوى وفلوبير والملحق الأدبى لجريدة «النايمز» ومجلة «جون أو لندن» و «الأثينيوم» والـ «نيشن» لنعود إلى تشيخوف وموباسان. ونهاجم أساتذة الجيل الكبار.. دون أن نقرأ لهم شيئاً، وهم لا يحسون بوجودنا.

وتطلق على بعض أعضاء المدرسة الحديثة كنيات من اختراع خيرى
أو طاهر: كأن نسمى واحداً منهم «الجنيفس» لأنه ينطق كلمة عبقرى
الإنجليزية دون تعطيش الجيم، ويأتى إلينا «الجنيفس» بأدب نحيف
هفتان، فنسميه «المنيفس»، ويؤلف طاهر قصته على لسان الحيوان
يبدوها بقوله «يحكى أن جنيفاً ومنيفاً تشاركاً فى المعيشة...».
وكان الجنيفس أملس جلد الرأس، لا شعرة فيه توحد الله، شبه
الشاعر رأسه بـ «باتيناج القمل» - بتشديد الميم. فإذا انضم إلى المدرسة
أديب جديد حقت عليه الجنيفة، فهو «الجنيفس أبو شعر». أو فنان
غير هفتان جدير بالمنيفة، سميناه «المنيفس أبو كرش». ونعتاد كلنا
على هذه الكنيات حتى ليصبح أصحابها فصيلة بعينها، يفتقدهم
الناظر فى المجلس فيسأل: الله! هما الجنايص راحوا فىن اللينة؟
وزميل كان يعجب بالكاتب بول بورجيه وتحليلاته الدقيقة
للشخصيات - إبراهيم المصرى - فإذا الاسم «الحركى» للزميل: المحلل
النفسانى. ولزميل آخر «ذعر»، لاستعماله كلمات عنيفة فى نقده، كأن
يقول عن العمل العظيم أو الحقير إنه يثير فى نفسه «الذعر» .
وكان العضو «زكى» يلبس نظارة «قرص أنف» (ترجمة بانس نيه)
تخر واحدة من عويناتها ماثلة على خده تحت ثقل سلسلتها الجانبية
- الأوستيك - ويحرص على الكلام بالفصحى مع قلقلة القاف وتعطيش
الجيم، فنسميه - وهو أفندى - «الشيخ زيكو». ويدعونا الشيخ

زيكو لأكلة عاشوراء فى منزله، وهو بيت عنيد تطلع سلمه المظلم،
يضيئه فانوس متهالك، يتدلى فى بير السلم من حبل عتيق علقت به
استلاكتيت التراب والوحل والقرف. ينظر خيرى إلى الفانوس ويقول:
هو ده الأسانسير يا شيخ زيكو؟ فيرد طاهر لاشين من آخر الصف
الطالع على السلم، وكأنه يخاطب نفسه: «دا باين عطلان» .

جلسنا نأكل العاشوراء بمنزل الشيخ زيكو، على ضوء القمر، وبعد
أن أتينا عليها، اكتشفنا أنها لم تكن محوجة بالياميش فحسب، بل
اتخذ أعشاشه فيها نمل كثير. ومنذ تلك الليلة وضع لنا ناظر المدرسة
تقويماً جديداً.. يبدأ بليلة «العاشورة أم نمل!» .

وقفت المدرسة صفًا فى منتصف الليل على ضوء «كلوب» بياع البليلة.
ويكتشف أحد تلاميذها - وكان أيضًا مفتش صحة القسم - حشرة
صغيرة حمراء فى سلطانية. وينفجر أعضاء المدرسة ضحكًا على زميلهم
مفتش الصحة الذى زعم بأنه «سيسكع» بائع البليلة محضرًا. ويقول
طاهر لاشين للبياع أنت بتقنى صراصير يا عم؟ ويؤكد خيرى سعيد
أن الرجل «بانى لهم غية فى السطوح»، وإذا البياع يخطف السلطانية
من يد مفتش الصحة، ويأتى على ما فيها بحركة واحدة وهو يقول:
«صراصير إيه يا عم صل عالنبى» !

ويمضى أعضاء المدرسة الحديثة فى طريقهم من السيدة إلى العباسية
- وبياع البليلة فى عابدين - يفلسفون الحادث، ويتساءلون عما للنمل

والصراصير وما لهم فيقول العضو البرهماني - أحمد شوقي حسن، وفي
المدرسة فيلسوف عبراني أيضاً، هو شالوم - بأنها أرواح أدياء تناسخت
وتحاول الانتقام من المدرسة الحديثة. فيبادر طاهر بالقول: زى فتوات
أمين صدقي، فاكري يا خيرى؟

ويرد خيرى سعيد: يا سلام يا عزيزى، بالك أنت لو ما كانت معاهم
شوم؟

- كنت يعنى حاتعمل إيه يا سى خيرى؟

- أقنعهم يا عزيزى بفساد المسرح الاستعراضى الفرانكو - آراب.
بالك أنت، حاتفضل وراء الملاعين دول لغاية ما يقفلوا المسارح دى.
يا عزيزى، دى مسألة أخلاق.. أخلاق البلد، أمال إيه!

كلا، لست أرثى ناظر مدرستى أحمد خيرى سعيد، فروحه
الساخر يتقمص تلاميذ مدرسته، وتلاميذ تلاميذ مدرسته: كل
الساخرين التأثيرين. لقد علمتنا المدارس الأميرية اللياقة والنظام
والطاعة والانصياع، والمواربة وخداع النفس. وعلمنا أحمد خيرى سعيد
الصراحة، وتجنب الادعاء والحنشصة، والثورة على كل تقليد بال،
وتحطيم الأصنام مهما ارتفعت هاماتها، وعلت قواعدها.

درس خيرى سعيد الطب، فأمن حتى آخر حياته بالعلم، لا غنى
عنه فى رأيه لا لأديب ولا لفنان.

«السيانس يا عزيزى. . !» يكفى أن تسمعه يبدأ هكذا لتحس أنه فى هذه المرة الواحدة الوحيدة، جاد كل الجد. فإن كان خيرى قد سخر بكل شىء وبكل فكر وكل إنسان، فإننى لا أذكر مرة واحدة أنه سخر بالعلم. كانت للعلم عنده قداسة خاصة - وما أعجبها كلمة تقال بصدده أحمد خيرى سعيد ! - وقد خدم العلم طوال حياته العملية: مترجمًا فنيًا بهيئة الصحة العالمية، وكاتبًا، وصحفيًا، ومفكرًا حرًا.

شكسبير فى خان جعفر

أعياد الحضارة التى شهدتها فى حياتى احتفال العالم سنة
من ١٩٢٧ بمضى مائة عام على وفاة شادى الإنسانية الأكبر
لودفيج فان بيتهوفن، وها هو ذا العالم يحتفى بذكرى مولد

وليم شكسبير (١٥٦٤).

أذكر فجأة احتفال مدرستى عام ١٩١٤ بذكرى مرور خمسين
وثلاثمائة عام على مولد شاعر الإنسانية الأكبر. كان احتفالاً صغيراً،
تم فى مكتبة المدرسة السعيدية بالجيزة. تداول فيه أساتذتنا التحدث
إلينا عن «ابن ستراتفورد أون إيفون». وألقى واحد من أساتذة اللغة
الإنجليزية متولوجاً لا أتذكر من أية رواية كان، والغالب أنه لم يخرج
عن منولوج «الكينونة واللاكينونة» لهملت، أو منولوج ما كبث وهو
يتأهب للغدر بضيفه الملك دنكان ويتخيل رؤية خنجر دام: «أهذا
خنجر بمقبضه يلوح لى؟ أنلنى منك ما تنضم عليه الأنامل، تفر منى
وما أنفك أراك ألا ينال منك الملمس، مثلما يراك البصر؟» .

ولم يمض عامان علينا فى المدرسة حتى كنا نؤلف جمعية التمثيل تقدم
نماذج من نشاطها أمام الناظر والأساتذة والتلاميذ، ولأذكرن - كأنه بالأمس -
الزملاء الذين شاركوا فى تقديم حفل خاص بشكسبير. ليس من حقى فيما
أظن أن أبوح بأسمائهم وقد برزوا فى الحياة علماء وأطباء ووزراء.

عرضت على ناظرنا الأجنبي برنامج الحفل، وكان بعضه بلغة شكسبير، فطلب منى نسختين لمأساتي هملت وماكبث وأشار إلى بعض فقرات مما اعتزمنا إلقاءه، أمر بحذفها. وكل متمرس بأسلوب شكسبير يدرك معنى الرقابة التربوية علينا في تلك السن المبكرة.

زميل ألقى منولوج ماكبث عن الخنجر، وزميل آخر لعب دور كبير الممثلين في الجوقة التي يدعوها أمير الدانيمارك لتمثل أمام عمه القاتل. ولعبت أنا دور هملت في الديالوج بينه وبين الممثلين في أول لقائه بهم. وهو من المناظر المحذوفة في ترجمة خليل مطران، وقد اكتشفت وأنا أراجع الترجمة توأ أن الخليل لا بد قد نقل عن ترجمة فرنسية مقتضبة مشوهة والغالب أنها من الترجمات التي تختزل مناظر من الرواية إعداداً لتمثيلها، وهذا أمر بالغ الخطورة، يضاف إلى الهنات التي أخذها الزميل الدكتور لويس عوض على ترجمات خليل مطران لشكسبير.

على أنه لا ترجمة شاعر القطرين، ولا حفل ذكرى مرور ٣٥٠ عاماً على مولد شكسبير بمكتبة المدرسة الثانوية، كانت أول صلة بين مراهقتنا وبين الشاعر الإنجليزي، إنما جاءت تلك الصلة عن طريق ترجمات أقدم لنجيب الحداد أو أخيه، كانت عجيبة العجائب. وأحسبها نقلت عن نصوص «الليبريتو» التي وضعت لتلحين الأوبرات نقلها الحداد نثرًا وشعرًا، ليلحنها الشيخ سلامة حجازي.

ولم أشاهد تمثيلها فى أول أمرى على مسرح الشيخ سلامة وإنما فى
مسارح أحيائنا الوطنية ممن درجوا على تقليد جوقة الشيخ، من أمثال
عبد الحميد عزمى، وعبد العزيز الجاهلى.

أبى إننا لم نعرف شكسبير على حقيقته فى ذلك الزمان إلا عندما
تمكننا من مطالعته فى الأصل، وهأنذا أكتشف حتى فى ترجمة المطران
لرواية «هملت» حذفًا واقتضابًا وتبويبًا عجيبًا.

ولم يمكن هذا فى الحق سوى صورة من ضروب التشوية والنسخ التى
أجريت على أعمال شكسبير فى أمكنة أخرى من العالم. ويذكر المطلعون
على تاريخ الأدب الإنجليزى ما أجراه الممثل دافيد جاريك فى القرن
الثامن عشر من تعديلات عند إخراجه لتمثليات شكسبير. وهذه لا تقارن
بالاعتداءات الكثيرة على نصوص شكسبير فى القرن السابع عشر، بل هى
قليلة بالنسبة لما جرى فى الترجمات الفرنسية والألمانية الأولى.

عرفت شكسبير أول ما عرفت فى تلك التلغيفات النثر - شعرية
لنجيب الحداد، وفى تخشيبات أو شواذر. وأذكر هملت طفولتى
بسترته السوداء، وسيقانه مغلقة بمايوه أسود وقبعته مطرزة بالخرز
الأسود، وريشة سوداء. أذكره ينغم شعرًا سخيلاً يقول فيه «عم خئون
وأم لا وفاء لها».

وكلمة خئون هذه كانت من أولى جواهرى اللغوية، كما كان
شبح أبى هملت أول أدواتى كمؤلف مسرحى، هو والمبارزة

بين هملت ولايرتس. فلا غرابة في أن أستعمل الثلاثة في الفصل الأول من تمثليتي الأولى... والأخيرة، ألفتها ولما أبلغ الثانية عشرة. تبدأ بمناقشة عنيفة بين شخصين، ينعت أحدهما الآخر، لسبب نسيته بقوله «خسنت يا خئون» ثم يسحب سيفه للمبارزة كما تعلمنا من مسارح الماوردي والبغالة وخان جعفر بسيدنا الحسين.

وقبل أن أختم الفصل الأول قام نزاع بين الصحاب الذين اتفقوا على تمثيل روايتي في مندرتهم، لسبب بسيط وهو أن أحد المتبارزين أردى زميله وهو يقول «مت يا خئون، يجرعك سيفي كأس المنون» فاحتج صاحب الدور على خاتمة دوره القصير وقال: ماذا أصنع بعد هذا؟ أليس في الإمكان الإبقاء على ولو إلى آخر الفصل؟

- لا عليك يا محمود، فإنك البطل الذي تدور حول مقتله حوادث الرواية.

- وماذا تعنيني أن تدور، ودوري قد انتهى قبل أن أهنا بالملابس التي أفصلها خصيصاً للدور؟

إنك لا تفهمني، دورك مستمر لبقية الرواية، سيكلفك عرضاً من البفتة تتلفع به. إنك الشبح الذي يطارد جميع أشخاص روايتي على مدار فصولها الخمسة.

وهذه قصة شبيهة بما حدث لفاجر في صغره عندما أُلّف مأساة قتل فيها جميع أشخاص الرواية في الفصل قبل الأخير واضطر إلى «تشغيل» أشباحهم ليتم روايته.

هملت وشبح أبى هملت ومبارزة هملت ولا يرتس، تلك كانت وقائع مسرحيات طفولتنا، نرصعها بكلمات: خئون، مقدم، كأس المنون، أو كأس الحمام.

إذ كيف أنسى الشبح وقد تسربل بثوب من البفتة «بفتة هندی، بفتة هندی شاش عريض يا بنات!» وسلط نور الكلوب على وجهه فبرقت عيناه وهو يردد في صوت رهيب: ها م م م ل ي ي ي ت.
وهملت يغنى بعد أن يعرف بمأساة أبيه وزواج أمه من عمه: «عم خئون وأم لا وفاء لها» .
أو ينشد:

أبتى ! أين أنت تنظر ما تم صار عرسًا ذاك الذى كان ماتم
وغدت بعدك المآتم أفرا حًا وذاك الثغر الحزين تبسم
ويمكن لمن مارس الشعر التقليدى أن يستجمع بقية القوافى مقدمًا فى:
أم، عم، هم، دم، عندم، مندم إلخ، وهى قافية ميسورة بالرغم مما يبدو لأول وهلة.

وربما كانت «هملت» أكثر روايات شكسبير التى رأيتها تمثل على المسرح أو فى السينما: عبد الحميد عزمى، عبد العزيز الجاهلى، الشيخ سلامة، عبد العزيز خليل، الملقن شلبى، الإيطاليان زاكونى، وروجيرو روجيرى، الألماني موسى، البريطانى أوليفيه، ثم ذلك الممثل الأيرلندى الذى نسيت اسمه، مع فرقة دبلن جيت، على مسرح أوبرا القاهرة.

ولم أسمع ولو مرة واحدة «آمليتو» شخصية الأوبرا، ولكنى سمعت مرات «أوتللو» فيردى، كما رأيتها فى الترجمة الملققة، يمثل «عطيلاً» رجلٌ اسمه مختار ضخم الصوت، واسع العينين، عريض المنكبين، وخرجت من الرواية أسخم «أسود» وجهى برمد الورق المحروق وأصرخ فى المرآة: ديدمونة المنديل، أين المنديل.

أما «رميو وجوليت» فكان اسمها فى مسارح طفولتنا «شهداء الغرام» وفيها يغنى الشيخ «يا غزالا صاد قلبى» و «سلى النجوم أيا جوليت عن سهرى» - أو هى شارلوت؟ لا أدرى - ويبكى موت جوليت بقصيدة «سلام على حسن يد الموت لم تكن» وفيها يقطع نياط قلوب الحرير المشاهدات وراء ستائر الدانتلا، بغنائه «أجوليت ما هذا السكوت إلخ». ورأيت جورج أبيض فى بعض دور «هملت». كان ذلك خلال تمثيله دور «الممثل كين» فى رواية ألكسندر دوما. وفى واحد من فصولها يقوم كين بتمثيل المنظر المؤلم بين هملت وأمه، وهو يؤنبها على فعلتها ويقارن بين صورة أبيه وعمه.. وهنا يلاحظ كين أن الوصى على عرش إنجلترا يغازل الفتاة الأرستقراطية، حبيبة كين، فيترك التمثيل ويتجه إلى حافة المسرح ويصرخ محتجاً على الوصى ثم ينعت نفسه بالسخ كين، والمهرج كين، ويقع مغشياً عليه يقيس خشبة المسرح. هذا ما كان من أمر الممثل كين مع غريمه الوصى على عرش إنجلترا. ولكنى رأيت - فى مصر - من كان يمثل دور عطيل، وشاهد فى

الكواليس زميلا له يغازل ديدمونة زوجته في التمثيل وكانت زوجته في الحياة، فغادر المسرح وهجم على غريمه الذى قفز من الكواليس إلى الشارع، والمغربى الأسود يطارده فى دروب الأزيكية حيث كانت دار التمثيل العربى.

كل ذلك ر أيته صبياً قبل الحرب الأولى وفي خلالها. ولما وضعت الحرب أوزارها كان المسرح قد اتخذ مظهره الجاد، وترجم مطران «ماكبت» ومثلها جورج أبيض، ومعه عبد الرحمن رشدى فى دور «ماكدوف». وقبيل الحرب العالمية الثانية كانت الفرقة القومية قد أنشئت، وترجم مطران «هملت» و «تاجر البندقية»، وأخرج زكى طليمات هذه الأخيرة إخراجاً ما زال ماثلاً فى الأذهان، ومثل دور «شايوك» وكان من أحسن أدواره وأعظمها.

وبالرغم من تطورات المسرح عندنا فقد بقيت لنا آثار المسرح العتيق الذى ورثناه عن سارة برتار وكوكلان ولوسيان جيترى، ثم سيلفان، ولوبارجى، فى طريقة الإلقاء المتأنق المفتعل والشهيق والزفير.. والشخير، مع تشطير الهواء بالأذرع كل تشطير، والزَعَق بصوت المرحوم أحمد فهيم يقول: ويل لملك النمسا من قلب الأسد، بل ويل لعسكره إذا لعب هذا السيف فى اليد !

يقول المخرج البريطانى بيتر بروك عن ترجمة شكسبير فى أوربا القرن الماضى بأنه كان العصر الذهبى لترجمات شكسبير. مثلاً فى

ألمانيا، أول ما يتلقى الصبي شعر شكسبير كان في ترجمة شليجل -
تيك، وهي ترجمة مفرقة في الرومانتيكية، أشبه بالمنظر الذي صوره
فوزيلي لجر روايات شكسبير وشخصه، أى إن الشعوب الأوروبية في
القرن التاسع عشر عرفت شكسبير كما لو فرضنا أن قد عرفه الشعب
البريطانى لا فى أصله بل - على سبيل الفرض - فى ترجمة بيرون
لهاملت، وشيللى للملك لير، وكيثس لروميو وجوليت.

وأقول بأن أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن كان العصر
«الصفىحى» لتراجم شكسبير إلى العربية: ماذا يهم؟ هل أضعفت
تلك الترجمات من قوة شكسبير الدرامية؟ ألم تترك فى طفولتنا
أثراً لا يمحي حتى إذا ما بلغنا الحلم، رحننا نطالعه فى لغته مثنى
وثلاث ورباع، وها نحن أولاء نتهياً للعودة إليه، ومطالعه فى سياقه
التاريخى، بمناسبة الاحتفال بذكرى مرور أربعمئة عام على مولده.
ولن نجد بنا حاجة إلى الحواشى والهوامش أو التوقف بمفردات ألفاظه
القديمة. ماذا يهم؟ ألا تكفيننا موسيقى شعر شكسبير وصوره الفتانة
الرائعات ونبض الحياة التى تعيشها شخصيات صناجة الإنجليز؟

يقدم رجلا ويؤخر أخرى

وقف مدرس اللغة العربية يشرح أمام الفصل صورة من صور البلاغة، لم تكن بحاجة إلى شرح، وهي صورة الحائر المتردد أو الخائف المتوجس، يقدم رجلا ويؤخر أخرى. قدم المدرس رجلا.. فعلا، ثم أخر الأخرى، فإذا البرجل (- الفرجار من فضلك) ينفرج. ولكن الأستاذ يفسر نظراتنا المتعجبة على أساس أننا لم نفهم.. فيقدم الرجل التي تقدمت، ويؤخر التي تأخرت، والبرجل يزيد انفراجًا حتى فقد المحترم توازنه، وافترش أرضية سنة ثانية فصل رابع. ومن سوء حظ حضرته أنه لم يكن قد تلقى دروسًا في الباليه، وإلا لجاؤا تزحلقه نظاميًا، وانتهى إلى ساق ممدودة إلى الأمام، وساق ممدودة إلى الخلف، وقد جلس على جذعه، مثلما تفعل راقصة الباليه، في الكباريه.

أما سيدنا فقد انهار كالبناء المشمخر (اشتد ارتفاعه) في الإعصار، عندما تزلزل الأرض زلزالها. وهروا تلاميذ الصف الأول ليأخذوا بيد أستاذنا الفاضل، وكنا نحب إصراره على شرح الغامض بحركات جسمه ويديه ورجليه، من قبيل التسالي والترفيه.

ولم ينهول تلميذ واحد من تلاميذ مدرسة محمد على الابتدائية لينتقد ضابط المدرسة من وحيته وسط الحوش عندما تزحلق في يوم مطير، وقاس الأرض بطوله.. أو بقصره، فقد كان ربة القوام مقببا كالوسادة جيدة الحشو، سليط اللسان حريصاً على النظام، وصكنا «بالأقلام» أمام طابور التلاميذ مصطفين كالأصنام.

كان الضابط - برغم كرهنا له - أجدر بأن يأخذ أحد بيديه ليقيله من عثاره. لأن زكى أفندى كانت له طريقة في لبس البلطو «وكان ينطق «البنطو» لخنافة في أنفه المستدير كالبرميل» زادت من خطورة زحلقتة. كان «بسلامته» يلبس المعطف على طريقة الفنانين فى مطالع القرن، أى دون أن يدخل ذراعيه فى كميته. وكان بنطو زكى أفندى من اللون المشمشى «المسخسخ»، يماثن «يشابه» لون الصحراء ولكنه يتعارض تماماً ولون طين البرك التى استحال إليها فناء المدرسة فى يوم شاتٍ، ربما كان فى آخر السنين العشر الأولى من هذا القرن..

وخوفاً من أن يطير البلطو، أو ينزاح عن كتفيه فى اليوم العاصف، زرره زكى أفندى بطريقة مجهولة لنا، فتحول ضابط مدرستنا فى معطفه إلى «زكيبية» بطربوش، وتصور أنه بعد ما نادى على طوابير المدرسة «صغادن - مارش» وارتقى التلاميذ الدرج إلى قاعات الدرس وخلا الفناء، تزحلق وطار طربوشه فى الهواء «وانبط» على مقعدته فى الوحل، وهو لا يملك لذراعيه حراكاً، فاستعاض عنهما بحركات رجليه فى الهواء، كمن يدير «بسكليت» فى خياله.

ولم ير الورطة، أو المحنة، أو الفصل المضحك، سوى بعض قادة الطوابير، فلم يتحرك واحد منهم لنجدة ضابطهم الهمام، حتى ولا «الرئيس» بسيوني، الذي لم يتمالك من الضحك على «الأسد المرعب» وما صنعت به عدالة السماء، إذ حولته إلى صرصار مقلوب على ظهره في الوحل.

وصاح زكى أفندى فى بسيونى بصوت زاده الزكام «خناقة» وهو يكاد «يطرشق» من الغضب:

«وكماد بتدحك يا بسيوى ا!».

ما رأيك فى أول هذه القصيدة وأنا أستعرض أيام دراستى الأولى؟ صدقنى لقد بدأتها بعزيمة جادة، وفى ذهنى محاولة الإجابة عن سؤال خطير: هل ربينا تربية سياسية فى مدارسنا - نحن أبناء ما قبل الحرب العظمى الأولى - ؟

لا، قطعاً، فى المدارس «الأميرية» .

ونعم، بالمدارس الأهلية.

فقد قضيت عاماً من أعوام المرحلة الأولى بالمدرسة التحضيرية الكبرى بأول درب الجماميز، وكانت مدرسة أهلية يديرها وطنى غيور، رجل أسمر البشرة جميل التقاطيع، أنيق البزة، خطيب جيد انتهى نهاية الوطنيين المجاهدين.. فى غيابات السجون، محكوماً عليه من المحاكم العسكرية البريطانية فى ثورة ١٩.

بالمدرسة التحضيرية الكبرى استمعنا إلى الخطب الحماسية من الناظر ومعاونيه وعرفنا من أساتذتنا بعض سيرة الاحتلال وكفاح الحزب الوطني، وسمعنا كلامًا مفهوماً، وغير مفهوم، عن الجلاء، وعن شيء اسمه الدستور، وخرجنا من المدرسة في موكب طويل إلى مقبرة مصطفى كامل كان ذلك ولا شك في ذكرى وفاة الزعيم الكبير، لأن خطبة ناظرنا الأسمر قبل المسيرة لم تكن بكاء ولا رثاء، بل كانت تثير الهمم القعساء، وتنادى بالجهاد والفداء.

وما إن انتقلت إلى المدرسة الأميرية بشارع مراسيئة حتى نزل ستار «البلاك أوت» علينا. فلا كلام في السياسة، ولا ذكر للصحف. وكانت هذه من المنوعات؛ مثلما كانت السجائر في المرحلة الثانوية، عندما كان ضباطها يتعقبون المدخنين من الفصول العليا، في أركان حوش المدرسة السعيدية ويتشممون ككلاب الصيد، حول الأدبانات.

وللدخان والسجائر في مدرستنا الابتدائية ذكرى لا تنسى، عندما هاجم الناظر واحداً من أساتذتنا في حصة العصر، وكان قد فرش صندوق الدخان، ودفتر ورق السجائر فوق منصة الأستاذية، وإلى جانب هذا وذاك العصاة التي كان يضربنا بها ضرباً عشوائياً. فلم تك لديه من الحصافة ما وهب الله زملاءه، كمدرس الحساب مثلاً، الذي يضرب بالمسطرة، ومدرس الجغرافيا الذي يضرب بالرجل الخشبي الكبير.. أي بأدوات دراسية.. بريئة، وإن كانت لهم فيها مآرب أخرى. ومدرس الحساب كان من النوع «السادى» الهادى، و «ياما تحت السواهى

بواهى» . يطلب إلى التلميذ فى لطف وأدب جم أن يمد يده، وأن يضم أصابعها إلى أعلى فيما يشبه حركة «شوية شوية» ثم ينزل بعرض المسطرة على أطراف الأصابع بضربات سريعة متلاحقة. وقد قبض على ذراع التلميذ البليد، بيد من حديد.

و «السادية» عند الأستاذ كانت واضحة فى ابتسامته الصفراء وهو يقول للواحد منا «ادينى الكمثرى» لأن خياله المريض كان يصور له يد التلميذ المضمومة.. على هيئة الكمثرى.

فاجأ الناظر - وكان تركى السحنة واللكنة - أستاذنا، وقد فرش فوق منصته مجموعة من المهربات «البداجوجية»: الدخان، وورق السجائر، و العصا. والحق أننا فى براءتنا لم نكن نعرف أن ذلك شىء محظور. . إلا عندما رأينا الأستاذ الفاضل يخطف تلك الأشياء ويخفيها كلها وراء ظهره وهو يقف وينزل عن المنصة، وينادى: قيام سلام.

وقامت مناورة من نوع الكوميديا «الفارص» بين الناظر التركى قصير النظر، وبين الأستاذ.. يتحرك فيها الناظر فى اتجاهات تسمح له - خلال عيينات سميقة، ذات عريش يعترض ما بين حاجبيه - باختلاس نظرة، يحقق فيها ما يخفى المدرس وراء ظهره. والأستاذ يتحرك حركة الأرض حول الشمس، يواجه الناظر بصدرة الرحب، وشواربه المملوكية سَوْدَهَا الخضاب، وقد تدلت أطرافها على جانبيه شفتيه، كأنه جنكيز خان.

ما رأيك في ذلك الأستاذ الذى كان يغرس فينا الفضائل - كالشجاعة
والصراحة والصدق - لفظاً ومعنى، لا عملاً ؟

كانت الجرايد ممنوعة قطعاً فى مدارسنا الأميرية، ولعل هذا يفسر
تأخرى فى ممارسة مطالعتها حتى السنة الثانية الثانوية عندما نشبت
الحرب العظمى بين دول الوسط، وبلجيكا وفرنسا وبريطانيا، وانضمت
تركيا إلى ألمانيا.

والأدهى فى مطاردة الصحف من حياتنا أن بعض مدرسى اللغة
العربية كانوا يحذروننا من لغتها، بحجة الركاقة، وكان المدرس منهم
يقدم الصفر، وما تحت الصفر تقديراً لموضوعات الإنشاء، قائلاً: هذه
لغة جرايد !

ولقد عثرت مؤخراً على كراسة لى من كراريس الإنشاء فى أول
المرحلة الثانوية فخلت من تفاهة أفكارها وسماجة أسلوبها التقليدى،
وموضوعاتها البعيدة عن الحياة وكل جميل فى الحياة. والتي كنا نحار
فى استهلالها فلا نجد غير جملة «خلق الله الإنسان»، ولا نعرف حيلة
لإطالتها غير التكرار الممل، والسجع المخل، مخل بالمعنى، مخل حتى
ببناء الجملة، وفى غير عبارات محفوظة «كخروج الرثبال، من بين
الأدغال» أو بيت شعر رث كفردة الجوراب القديم.

بل خللت من تصويبات الأستاذ، وهى تزاحم فى غثائتها، أسلوبى
الغث، وإن صدقت فى تصحيح حروف الجر، أو اسم إن.

وخف وطء خجلى من نفسى عندما عثرت فى الكراسية على ما كان
يعلمه علينا الأستاذ بعنوان «نموذج للموضوع». وآسف أنتى لا أجد
الكراسية تحت يدى فى الحال، لأنتقى من بين درر الأستاذ درة يكسف
لألاؤها وجه الشمس.

كنا بمنأى عن السياسة فى مدارسنا «الميرى»، ربما كنا نتحدث فيها
سراً، ولكنى لا أذكر من تلك الأحاديث غير ما كان يقصه على زميل ابن
وزير، مما وقع بين الخديو وناظر نظاره، وأدى ذلك إلى فصله (فصل
ناظر النظار، لا زميلى).

أليس عجيباً من جيلنا الذى تربى فى قمقم «الميرى» وقضى مرحلته
الثانوية تحت الأحكام العرفية البريطانية؟ «أنا جون ماكسويل، القائد
العام لجيوش حضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا وإمبراطور الهند،
أمر بما يأتى» . . .

أقول: أليس عجيباً من جيلنا أن يتحرك حركة عارمة ذات صباح من
مارس ١٩١٩ ويخرج إلى الطريق العام، والمظاهرات والفدائية، فلا يعود
إلى معاهد العلم إلا بعد ضياع عام كامل من دراسته ومنا من لم يعد، إما
جرفته الحياة الحرة وإما اغتالته المحاكم العسكرية؟

هل نفسر ذلك بفعل الكبت ورد الفعل، أو هو الفارق الكبير بين
«حبسة» المدارس الابتدائية والثانوية، وبين حرية التصرف فى المدارس
العالية؟

لماذا أسمح لنفسى بالتندر على بعض أساتذتى مع ما أكن لهم من
حب وإجلال؟ ثم ألم يكن لهم ولأساتذة اللغة العربية بالذات - فضل
الفصاحة والدربة التى مكنت بعضنا من أن يصبح من أبلغ خطباء الثورة،
فى صحن الأزهر الشريف؟

ربما كانت ظروفنا السياسية فى ثورة ١٩ هى التى قومت من
أساليبنا، وصرفتنا عن التمثل بالأشعار السخيفة والسجع، إلى صدق
التعبير، وأصالة التفكير.

وللأسلوب والفكر، وتطورهما عند أهل جيلى حكاية أخرى...
ربما عدت إليها.

عودة إلى كراسة الإنشاء

إلى الشمال من مدينة الجيزة بين المدرسة السعيدية وضة النيل الغربية حديقة غناء، وروضة فيحاء هي حديقة الحيوان، كأنها من رياض الجنان أو سفينة نوح فيها من كل جنس زوجان. فثمة روح وريحان، وأشجار ذات أفنان يجرى النسيم خلالها وكأنما غمرت فضول رداؤها في العنبر قد حنت على المتنزهين حنو المرضعات على البنين تقيهم لفحة الرمضاء، وتصح له مفاصد الهواء.

وكل غصن بغصن صار معتنقاً مسرة كاعتناق اللام بالألف فيها طيور تصدح، وعجم تفصح وزرافى ونعام، وظباء بين الآكام كظباء مكة صيدهن حرام، وأفياح كأسدا ف الظلام أو قطع الغمام.. إلخ». هذا نموذج الأستاذ فى وصف حديقة الحيوان للسنة الأولى بالمدرسة السعيدية الثانوية، عام ١٩١٤.

أما التلميذ فيقول، متذكراً ما جاء فى كلام الأستاذ، وهو يقرأ النموذج علينا قبل الشروع فى التحرير: «وأفياح كأسدا ف الظلام، أو قطع الغمام. تراه قصير الرقبة، ولكن الله خصه بخرطوم طويل، وأعطاه فى القوة (من، بالحبر الأحمر) على خلع شجرة (صححت: وأعطاه من القوة الحظ الجزيل)، وزرافى و نعام وقد طالت رقابها فالزرافة يوضع لها الأكل فى سطح مسكنها العالى فتأكله بكل سهولة. . إلخ» .

ومن موضوعات ذلك العام الأول فى دراستى الثانوية
«تأثير الأخلاق الفاضلة فى ارتقاء الأمة وسعادتها». «أجل - يقول
الأستاذ - فإن الأمة التى ضربت فى مكارم الأخلاق بسهم لجديرة بأن
تقبض على صولجان السعادة الحقة، والمجد الشامخ، والعزة القعاء (ال
ثابته)، والقوة العليا والعدد العديد، والشوك والحديد». أما التلميذ
فیبداً موضوعه هكذا «تالله ما رأينا فرداً قد تحلى بالفضيلة، واتخذ منها
ثوباً قشيباً، إلا وهو محبوب عند كل الناس» .

وفى موضوع «مزايا الرفق بالحيوان» يبدأ التلميذ بالجملة التقليدية
«خلق الله الإنسان»، ونموذج الأستاذ «خلق الإنسان» .

يتحدث التلميذ عن «الطيران، وماضيه وحاضره ومستقبله»: فأول
من فكر فى ذلك هو رجل من كبار علماء العرب بالأندلس يدعى العباس
بن فرناس. (الحكاية) «غير أنه لم يفكر قبل صعوده فى كيفية
النزول»؟؟ «فحينما أراد أن ينزل لم يقدر فسقط على الأرض فتهشمت
عظامه، ومات أشنع ميتة.. فلما قرأ الفرنسيون كتب العرب وعلموا
ذلك اجتهدوا فى تقليد ذلك الاعرابى. . واخترعوا المناطيد سنة ١٨٣٥.
ولما علم الألمان بذلك اجتهدوا فى تحسين هذا النوع من الطيارة، وجعله
أقل خطورة، فاخترعوا السفن الهوائية.. وكان الأمريكيون يجتهدون
فى عمل طيارات من نوع آخر، وهى الطيارات التى نراها الآن. . فإن
ابنى ريت اخترعها وجعلها (بالأحمر: فعل المشى) تطير بالبنزين،

نوع من زيت الاستصباح، وكانت فرنسا فى ذلك العهد تباهى بأنها أول من اخترع الطائرات فلما سمع ولبور ريت ذلك رحل من بلاد أمريكا إلى فرنسا سابقاً فى الجو، ليرى فرنسا أنه المخترع لأحسن نوع من الطائرات (غير صحيح، لأن أول من عبر الأطلنطى من الغرب إلى الشرق كان لندبرج عام ١٩٢٧). . ووفد إلى مصر هذا العام (١٩١٤) جماعة من ملوك الهواء، جول فدرين وجاك بوييه والمسيو أوليفيه، وسيفد الأسبوع الآتى طيران يلعبان ألعاباً بهلوانية فى الهواء» .

«وللطيران فوائد كثيرة، خصوصاً فى الحروب. . ولقد تحل محل السفن البخارية والوابورات البرية (بالأحمر: القطرات) فإن أحد الروسين اخترع طائرة حملت عشرة رجال.

هو العلم يعلو بالحياة سعادة ويجعلها كالعلم محمودة العقبي»
وحاز التلميذ على سخفه هذا أكبر درجة طول عامه الدراسى: سبعة من عشرة، كما حصل على درجة مماثلة عن موضوع «حديقة الحيوان» .
أما موضوعاته الأخرى فيتراوح التقدير فيها بين خمسة وستة من عشرة، ويوصف أغلبها بمثل «ضعيف العبارة جداً»، «ليس بشىء»
وفى موضوع «اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم» توجت الأوصاف بقول الأستاذ «عبارة ركيكة» .

ومن موضوعات العام موضوع «فوائد المتاحف» لا تذكر فيه كلمة واحدة عن الجمال والفن، والنقاط التى أملاها علينا الأستاذ تدور حول

الدرس التاريخى العملى ، وعن المحاكاة والتقليد «إذ يرى الصناع تلك الآثار الدقيقة، فلايسعهم إلا محاكاتها، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. فهى المورد العذب يستسقى منه كل من رام ريباً فى صناعته، واتقاناً جليلاً فى حرفته، ليحوز قصب السبق فى مضمار الصناعة» ولا كلمة عن الفن والجمال !

واضح من المقارنة السابقة بين ركافة التلميذ وبلاغة الأستاذ، أن هذا الشبل من ذاك الأسد: النبع واحد، والهدف واحد، هو محاولة رص كلام فارغ، ولكن فى جزالة أسلوب، وبلاغة تعبير ! وكانت مسألة حياة أو موت أن تتركز عنايتنا فى تجويد الأسلوب، وصقله. فما إن بدأنا دراسة الأدب العربى حتى اندفع التلميذ يطالع أعلام هذا الأدب فى دواوينهم وخطبهم ورسائلهم، وما أشك فى أن أسلوبه سار على الدرب «ومن سار على الدرب وصل». . كما أعرف يقيناً أنه نظم على غرار العرب أبان حضارتهم العظمى.

ثم حدث أن اتسعت معارف التلميذ فى اللغة الأجنبية، حتى استطاع أن يطالع القصص والقصائد المشهورة فى تلك اللغة، ولم يكتف بما وضعت نظارة المعارف بين يديه من مجموعات شعرية بل اقتنى «الخزانة الذهبية» جمع بالجريف، والتهم منتخباتها القهاماً، بفهم ناقص، يكمله تأثره بموسيقى الشعر وأوزانه.

وكلما تقدمت بنا الدراسة، واتسع الاطلاع، نضج الفهم، فإذا بالأدب الأجنبي يجتذب التلميذ إليه بقوة. ولا غرابة في هذا لأن الأدب الأجنبي الذي ألقى إليه يرتد إلى القرن السابع عشر، وأغلبه من التاسع عشر، فالقرن العشرين. بينما الأدب العربي يعبر عن مشاعر وصور أفكار قرون غابرة، ربما كان أقربها إلينا القرن الحادى عشر. والأمر هنا لا علاقة له بقومية أو وطنية، فلغتنا هى العربية، آمناء، وكنوز العربية ما أروعها وأبلغها، ولكنها تعبر عن وجدان أهل لنا بعيدين عنا جداً فى الزمان. فالفارق هنا ليس بين شعب وشعب، بل هو فارق إدراك وإحساس، وطريقة فى التعبير عن خوالج الإنسان، أقرب إلينا فى الأدب الأوروبى، لمجرد تقارب الزمان الذى تعبر عنه.

هذا إلى أن بعض الآداب الأجنبية، حتى ما كان أقدم كثيراً من الأدب العربى - كالأدب اليونانى - تعالج موضوعات إنسانية فى أسلوب درامى، أو فى شعر ملحمى أى على أساس القصة أياً كان شكلها.

ولو أن أساتذتنا خرجوا قليلاً عن أبواب الأدب العربى الصميم إلى فصول من الفلسفة أو التاريخ أو الطب، أو العلوم العربية أو الرحلات، لتمكنوا من تمهيد مجالات التعبير لنا، مع توسيع مداركنا عن إنجازات الحضارة العربية الزاهرة.

أما أن نعقد على الأدب العربى وحده فى نشره ونظمه، فما أحب ذلك إلى روحنا القومى، وما أحوجتنا إليه فى تقويم لغتنا. ولكن من ذا

الذى يقاوم أثر الأدب الأوربى عندما يطالع سويفت وميلتون وجونسون وماكولى وديكنز وثاكرى وتوماس هاردى؟ وهل تحتوى آداب العالم على كثير يقف أمام درامات أسخيلوس وسوفوكليس وأوروبيدس وشكسبير؟ كل هذه تفاصيل، تزجنى فيها صراحتى وصدقى مع نفسى. المهم أننى تعلقت بالأدب العربى والأوربى، منذ تحولت قراءتنا من السخف الذى بدأت به هذا المقال، إلى آداب اللغة العربية ونصوصها العظيمة، ومنذ تقوت معارفنا فى اللغة الإنجليزية.

وكان لحب الأدب عامة فضل دفعنى إلى تعلم اللغة الفرنسية وقد عز على أن تدرس تلك اللغة للقسم الأدبى، ونحرم منها فى القسم العلمى، فبدأت من الثالثة الثانوية أتلقى دروسًا فى تلك اللغة بمدرسة عالمية مشهورة مازالت بمكانها إلى اليوم، وإن لم تحتفظ بمكانتها.

واشتهر أمر حبى للأدب بين زملائى بالقسم العلمى وأساتذتى. وسألت أستاذ الإنجليزية إن كان ممكناً قبولى بمدرسة المعلمين العليا، بالقسم الأدبى، إذا ما حصلت على البكالوريا قسم علمى، ونقل المدرس الخبر إلى الناظر الإنجليزى فاستدعانى مستر شارمان وتحدث إلى فى رفق، لم نعهده فى مظهره العام، وكان نوعاً من البعبع المرعب للمدرسة كلها. وأظهرنى على صعوبة قبولى بالقسم الأدبى بمدرسة المعلمين، ثم طمأننى بأن هناك مشروعاً وشيك التنفيذ لإنشاء جامعة «ولا أظنك تلاقى صعوبة فى التقدم إلى كلية الآداب، بشهادتك العلمية» ثم سلم

إلى قصاصة من جريدة «الميل» أو «الجازيت» بها مقال عن مشروع إنشاء الجامعة الرسمية، وكنا فى سنة ١٩١٧ نحضر للبكالوريا، وهو المشروع الذى لم يخرج إلى النور إلا سنة ١٩٢٥، أى بعد انتهاء دراستى العالية بمدرسة الطب المصرية.

والتغيير الذى حدث فى حياتى المدرسية منذ شغفت بالأدب (والفن، ولهذا حكايات أخرى) جعلنى أنصرف عن الألعاب الرياضية وكنت عضواً بفريق الجمباز الأول بالمدرسة الابتدائية، ولاعب كرة فى فرق الفصول، وفى المدرسة السعيدية وقع الاختيار على لقيادة فصلى كاملاً كفرقة جمباز، وكان فصلى مؤهلاً للمركز الأول فى مباراة العام بين الفصول.

وحدثت مأساة، عندما قضيت فترة الفجر أعد قصيدة عن «الرفق بالحيوان» استغرقت كل وقتى حتى ميعاد الدروس ونسيت تماماً أن مباراة الجمباز لفرقتى كان ميعادها ذلك الصباح، قبل بدء الدروس بنصف ساعة، واستدعيت أمام الناظر، الذى قابلنى بجفاء، وسألنى عن سبب تخلفى؛ فأجبتته مختنق الصوت بأننى نسيت وعوقبت أقسى عقوبة معروفة فى زماننا أنا الذى لم تبدر منى هفوة أعاقب عليها حتى أخف العقوبات، طوال حياتى فى المدرسة.

ولازمنى حب الاطلاع العام، وممارسة الأدب، إلى يومنا هذا. ومما ساعدنى على التوسع فى الاطلاع أن أستاذاً بمدرسة الطب ضمنى

بدار الكتب، وكانت تيسر الاستعارات الخارجية إلى أقصى حد. ومازلت أذكر صف الكتب الطويل على مكتبي مما كنت أستعيره من الدار. كما عرفت - في مدرسة الطب - طريقى إلى الجامعة المصرية القديمة، وكانت بميدان الأزهار، فحضرت بعض دروس الفلسفة على الكونت دى جالارزا، ودروس الأدب الفرنسى على مسيو كليمان (عن فلوبير ومدام بوفارى) والأدب الإنجليزى على من لا أذكر اسمه، وإن ذكرت دروسه عن وردزورث. وكان لى حظ حضور محاضرة للدكتور طه حسين، وأحسبها كانت محاضرتة الأولى بعد عودته من فرنسا. ولم يصدنى عن متابعة محاضراته الرائعة إلا ازدحام القاعة بالمستمعين ازدحاماً شديداً.

ومما أعاننى على تحرير أسلوبى من البلاغة التقليدية انكبابى على نوع من التمارين، رسمتها لنفسى، وهى أن أترجم عن الإنجليزية بعض القصائد المشهورة فى «الخزانة الذهبية»، وبعض مناظر من شكسبير (من هاملت، وماكبث، وعطيل).

ودفعت بى هواية المسرح إلى مطالعة الأدب التمثيلى عند اليونان. ورواية «شاكونتالا» الهندية لكاليداسا، كما دلنى أستاذ اللغة الإنجليزية على إبسن وجيمس بارى، وبرنارد شو، وأوسكار وايلد وميتزلانك، فاشتغلت بترجمة فصول من إبسن «روسمرسهولم» و «عدو الشعب» و «سيدة من البحر».

وأعترف بالفضل كل الفضل لمحمد السباعي (ومجلة البيان) وصاحبها الشيخ عبد الرحمن البرقوقي، وللمنفلوطي، وأنطون الجميل (مجلة الزهور) على تطويع أسلوبى لتفكير العصر وأحاسيسه. وتعلقت بأدب جبران خليل جبران. إلا أن رجلا فاضلا حذرني لغته، ولغة المهجريين كلهم. ومع ذلك فقد درجت على مطالعة كل ما كان يقع لى من كتاباتهم.

ولم أتعرف على الأدب الروسى حتى تلك اللحظة، وقد تغلبت على فى ذلك الزمان نزعة رومانتيكية حادة لم أتخلص منها إلا بشق النفس، بفضل دراساتى الطبية، ثم العلمية بعدها، وبفضل مطالعة بلزاك وفلوبير والكتاب الروس.

وفى صبيحة يوم من شهر مارس ١٩١٩ ركبنا رءوسنا وهجرنا دروسنا لنخوض غمار ثورة «يحييا الوطن» و «الاستقلال التام أو الموت الزؤام».

وثورة ١٩ فى جيلى هى نوع من مطالع التقاويم، كما نؤرخ بالهجرة، والميلاد. وأشهد لعام تلك الثورة بأننا نمونا فيه، بما يعادل أعواماً من السنوات المعتادة فى حياة كل غلام، أو مراهق أو شاب.

ومع أن حقبتى الرومانتيكية استطالت إلى ما بعد ذلك العام، إلا أن ما أحدثته تلك الثورة ضمن ما صنعتها فى تكوينى هو أنها أخرجتنى عن فرديتى ووحدتى، وأوصلتنى بناس من العالم الخارجى دلونى على

طريق الأدب الروسى العظيم، وهم المرحومان محمد رشيد وزوج أخته محمد تيمور، والصديقان محمود تيمور وزكى طليمات، وعن طريقهم عرفت زين شعراء الشباب أحمد رامى، والثائر الأعظم المرحوم أحمد خيرى سعيد.

كانت لنا اجتماعات دورية فى بيت محمد رشيد يقرأ علينا فيها المرحوم محمد تيمور أطيب الأدب اليونانى القديم، والأدب الروسى، والأدب الفرنسى. ونذهب للاستماع إلى الموسيقى السمفونية بقاعتي الكورسال وسينما كليبر، وحفلات الرباعيات وكبار العازفين. وكانت القاهرة فى أوائل العشرينات تملك اثنين من الأوركسترات الكبيرة، ويمر بها العازفون العالميون زرافات ووحدانا.

وتولى محمد تيمور وأخوه محمود مجلة «السفور» زماناً. وفيها نشر محمود تيمور أول قصصه. وتولى أحمد خيرى سعيد مجلة «الشباب» وفى هاتين المجلتين نشرت ما قدر لى أن أكتبه منذ سنة ١٩١٩ حتى مطالع العشرينات (وعفا الله عما سلف ا).

وبعد وفاة محمد تيمور تشتت شملنا، وتألقت من المرحومين أحمد خيرى سعيد ومحمود طاهر لاشين، وإبراهيم المصرى وحسن محمود وأحمد شوقى حسن (مد الله فى أعمارهم) وفايق رياض وأندريا جابريل، ما أطلقنا عليه تندرًا وسخرية بنا عنوان «المدرسة الحديثة»

التي انضم إليها يحيى حقي قبيل افتراقى عنها بسبب سفرى الطويل إلى فرنسا بالبعثة العلمية.

وأخرج لنا خيرى سعيد «الفجر» مجلة «الهدم والبناء» ، اشترينا لها مجموعة حروف ، حملناها إلى مندرة طاهر لاشين على ما يشبه ألواح العجين ، وهى فكرة عجيبة من أفكار خيرى سعيد : «يا عزيزى مادام الحروف معانا ، يبقى فاضل المطبعة !» ونشرنا فى «الفجر» مقالاتنا وقصصنا ، كما خصصت مقالين لنقد أول كتاب ظهر للصديق القديم محمود تيمور ، أظنه كتاب «الشيخ جمعة وقصص أخرى».

تلك حقبة جديرة بفصل خاص. إنما أردت أن أبين هنا الأدوار التي مررت بها - كواحد من أبناء جيلى ليس غير - والتي طورت تفكيرنا ومصادر ثقافتنا ، ودفعت بنا فى طريق كان جديداً طليعياً فى الأدب المصرى المعاصر.

كنا فى تلك الحقبة - أغلبنا - أبناء جى دى موباسان وبلزاك ودستويفسكى وتورجنيف وتشيوخوف وتولستوى. وربما حققت علينا كلمة واحد من الروس العظام وأظنه دستويفسكى ، حين قال : كلنا خرجنا من «معطف» جوجل .

هذه حقيقة أحب أن أذكرها : لم نخرج من توب «زينب» ولا من حديث «عيسى بن هشام» وإنما من ترجمات محمد السباعى ،

والمفلوطى، وأحمد حسن الزيات، وأنطون الجميل، والمازنى (صانين)
ومن الأصول التى ترجم عنها أولئك، وغيرها.

ويجدربى ألا أنسى مترجمى التمثيليات: فرح أنطون، وإلياس
فياض، وخليلى مطران.

حفظنا القرآن الكريم أطفالا، فقوم ألسنتنا، وأرهف حسنا
بجمال العربية وروعتهأ. ونشأنا على الأدب العربى نشأة طيبة
مراهقين وشبابا.

ولكن تكويننا روحيا وعقليا نما واكتمل فى دنيا الأدب الأوربى،
على قدر ما طالعنا منه فى اللغات التى نحسنها.

من الفوائد الفكرية إلى القصة المصرية

أول ما تعلمت من فك الخط كان كلمة سحرية، أشبه «بسمسم» الكلمة التي نسيها من اقتحم الكنز في كهف على بابا. لم أنسها، ولكنها اختفت من كيان اللغة فلم يقدر لى أن ألقاها فى حياتى مرة أخرى، على كثرة ما طالعت من كتب العرب.

تلك كلمة «بر» بضم الباء وتشديد الراء. «أى قمح» وكان كتاب «التهجى والمطالعة» ذاك محلى بالصور. والكلمة الثانية فيه هى «بط»، وفوقها رسم لذلك الحيوان «القنط» والثالثة «سن»، وفوقها رسم عجيب لا يمكن لطفل أن يفهمه، فلم يكن سن فيل، أو سنة العروسة «يا شمس يا شموسة إلخ. . .»، بل كان الضرس الطبى الذى يضعه لك حكيم الأسنان. فى كباية.

حكى لى صديق كيف اعتمد أخوه الأصغر على الصور، زاعماً أنه يفك الخط. فلما وصل إلى كلمة «سن» لم يتعرف على الضرس الطبى فطالع «بنطلونن» لأن الرسم كان أقرب إلى بنطلون منشور فى الهواء.

والكلمة السحرية التى اختفت من اللغة، منذ «تهجيتها» فى طفولتى إلى اليوم، كان قد رسم فوقها ما لا شك فى أنه عود «غلة»، ومع هذا فمازلت اشك فى أن كلمة «بر» تعنى قمحاً، وقد تعنى واحداً

من نباتات الحبوب، وهي كثيرة، كانت تعتبر «مغرزا» أى مشكلة فى امتحان النبات العملى بجامعة باريس.

خمسة كتب استقرت فى ذاكرتى مما قرر علينا فى حصص المطالعة بالرحلتين الدراسيتين: الفوائد الفكرية، والأدب الصغير، والأدب الكبير، وكليلة ودمنة، وأدب الدنيا والدين.

ولقد تعجب حين تعلم أن أهم هذه الكتب عندى، وأعمقها فائدة فى تكوينى العقلى والخلقى كان. . الفوائد الفكرية «من آثار المرحوم عبد الله باشا فكرى، وتنقيح حضرتى عبد الجواد أفندى عبد المتعال، وعبد الله أفندى الأنصارى وسيد أفندى محمد»، ثم تصديق «صاحب الفضيلة حضرة الأستاذ الفاضل، الشيخ حمزة فتح الله».

وليس معنى هذا أننى أنتقص من قدر الكتب الأخرى، حاشا وكلا، ولكن الظاهرة المفزعة هى أن كل كتاب من الأربعة يمسك بخناقنا عاماً دراسياً كاملاً، ننام ونصحو عليه. وأن حصص المطالعة «المؤبد» تعيش فى ذاكرتى كالأرض الخراب، يتردد فى بلقها صوت الأستاذ وهو يلقى علينا نموذج القراءة بصوته المنغم المنوم.

خذ منها كتاباً عظيماً هو مستودع الحكمة الإنسانية القديمة فى أسلوب جزل سهل ممتنع: «كليلة ودمنة». ذلك كتاب من كتبى المفضلة إلى يومنا هذا. ولكنه ليس كتاباً يطالع من الجلدة للجلدة. إنه روضة لحكم وأمثال، تقلب صفحاته لتقرأ واقعة هنا، ودرساً هناك فى السلوك

الفردى أو الاجتماعى ، كتاب تتزود منه زاداً مقتصدًا يجلو الفكر ،
ويبعث على التأمل.

أما أن تصحو وتنام - فى حصة العصر - ويمضى الخريف
والشتاء والربيع ، ويهل الصيف ، فلا تعرف حصة مطالعة بدونه ، فذلك نوع
من العقاب المدرسى فيما يشبه «اكتب خطبة قس بن ساعدة خمسين مرة» .
ثم من يكون ابن المقفع هذا يلازمنا كالأشهر ومر السنين ، بل ما هى
تلك الكتب المثقلة بالحكم تكبس على نافوخنا العام تلو العام ، «المسوقة»
«المحملة» بالمواعظ وسقة «حمولة» سفن الصعيد بالقلل القناوى .

وماذا وجدت فى «الفوائد الفكرية» موضوع سخرية البداجوجيين ؟
أعلم - حفظك الله - أنه اسم على مسمى ، وأنه ليس أدبًا ، ولا حذقة
لغوية . إنه «مفيد» أولاً ، يقدم للطفل شحنة طيبة من المعلومات الأساسية
عن الأيام والشهور فى السنة العربية ، والسنة القبطية ، والسنة
الإفرنجية «ويوم الجمعة هو العيد الأسبوعى للمسلمين يجتمعون به
فى المساجد لأداء فريضة الجمعة ، ويوم السبت هو العيد الأسبوعى
 لليهود يتركون فيه أشغالهم ويذهبون إلى كنائسهم ، ويوم الأحد عيد
النصارى الأسبوعى يتركون فيه أشغالهم ويذهبون إلى كنائسهم أيضاً» .
«والأيام الثلاثة بعد عيد الأضحى تسمى أيام التشريق وأيام منى ،
وهى الأيام المعدودات المذكورة فى قوله تعالى :

﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ البقرة - الآية: ٢٠٣ .

ويحرم صومها وصوم يومى العيدين». «وفى شهر برمودة يدرك القول،
وينعقد اللوز، ويحصد الشعير والترمس والحلبة والقمح البدرى
وأبو النوم، ويزرع الأرز، ويتوالد النخل. وفيه يجنى الورد المصرى
لاستخراج مائه وتجمع الأزهار من أشجار الليمون والفرنج لاستخراج
مائها أيضاً. وزهر النارج هو أجود الأزهار وأعطرها. وفى هذا الشهر
يكون أشهر أعياد النصارى المسمى بعيد الفصح، واليوم الثانى منه
هو المعروف بيوم شم النسيم، وأول الأيام التى تسمى الخماسين».
ومعلومات عن مقاييس الأبعاد والأوزان والمكاييل، وقيمة النقود
المشهورة فى مصر: الجنيه المصرى والمجيدى والإنجليزى والمسكوبى
و «الوينتو أو البنتو، وهو عشرون فرنكاً، ويساوى سبعة وسبعين قرشاً
وسنة فضة.. والقرش يساوى أربعين فضة أو أربعين بارة». وقد عرفنا
البارة فى طفولتنا باسم عشرة خردة !

وتجىء بعد المعلومات فصول فى الأخلاق: حب الله، محبة الأنبياء
والمرسلين، الأب الأم. آداب الطفل مع أولاد حارته وأولاد مكتبه
وغيرهم. . ولا يصح للولد أن يخبر أحداً بشيء من الأمور التى تقع فى
بيته. . وعلى التلميذ إذا حفظ شيئاً من الدروس ألا يكون مثل الببغاء.
وينتهى الكتاب بفصل عظيم عن «محبة الوطن»: «. . إذا عرفت ذلك
وأردت أن تقوم بما عليك من خدمة الوطن العزيز يلزمك أن تبذل غاية
اجتهادك فى التعلم وتحصيل العلوم والمعارف. . ومثل لوازم العسكرية

التي هي ضرورة لحفظ البلاد من تعدى الأجانب عليها، وتملكهم لها واستعبادهم لأهلها، فإن الوطن إن تملكته حكومة أجنبية استذلت أهله واحتقرتهم وأضاعته حقوقهم. ولا تظن أن ما ذكرناه من حب الوطن مقتضاه ألا يفارق الإنسان منشأه، ولا يخرج عنه إلى غيره ولو لمنفعة الوطن كما يعتقد بعض العوام القاصرة أفهامهم. . المحب لوطنه في الحقيقة من يسعى في مصلحته ومصلحة أهله، ولو بالخروج إلى البلاد الأجنبية لتحصيل علم من العلوم، أو تعلم صنعة، أو تعاطى تجارة يجلب بها لبلاده ما تمس إليه الحاجة من حاصلات البلاد الخارجية وبضائعها وآثار فنونها وصنائعها. . إلخ».

أسلوب واقعي مباشر، لا تواليت «تجميل» فيه ولا زواق، أسلوب علمي أطل علينا في مطلع حياتنا. ثم اختفى نهائياً، وكان علينا أن ندرس الطب والعلم، وأن نجتاز البحار والجبال والوهاد لنبلغه بعد عناء. إن صفحة واحدة من هذا الكتيب السانج تساوى عندي كل خطب وفود العرب على كسرى. والأستاذ الذي لم يجد وصفاً لحديقة الحيوان إلا أن يتمثل ببيت:

وكل غصن بغصن صار معتنقاً مسرة كاعتناق اللام بالألف
كان كفيلاً أن يفسد ذوقنا اللغوى إفساداً لا أمل في إصلاحه.

ولا عجب أن يؤدي التزمست والحكم والمواعظ وأدب الدنيا والدين – ذلك الغذاء الدسم المترف – إلى أن يحبب إلينا القول والفلافل والبصارة

والعدس، قصص حمزة البهلوان والأميرة ذات الهممة وعلى الزبيق
المصرى ووقائعه مع دليلة المحتالة وبناتها زينب النصابة. كما انصرفت
إلى كتب خرافات وأساطير بمكتبة والدي، مثل الكتاب المنسوب لابن
إياس «بدائع الزهور ووقائع الدهور» الذى يحكى خلق العالم وإقامة
السموات والأراضين وما فوقها وما تحتها، أو كتاب «عجائب الهند،
بره وبحره وجزائره» تأليف بزرك بن شهريار الناخداه.

وشهية القراءة تبعثها القراءة، ومن تلك الكتب العجيبة كانت
النقلة طبيعية إلى الترجمات الشامية لمغامرات روكامبول وأسرار
باريس، واليهودى القائه، وفانتوماس، وأرسين لوبان.

وما يعتم الغلام حتى يتحول، فى محاذاة نموه العقلى، إلى الأدب
العربى فيتروض فى «مروج الذهب»، ويرتاد مجاهل «الأغانى»،
ويتحلى «بالعقد الفريد»، و«الكامل للمبرد» و«المحاسن والأضداد»،
و«المفضليات» و«ديوان الحماسة» وأمثال الميدانى ودواوين الشعر بشرح
الزوزنى والشتقيطى.

وفى محاذاة فهمه للغات الأجنبية، ينتقل إلى «الفرسان الثلاثة»
و«الفيكونت دى براجلون»، وغيرها من قصص دوماس التاريخى
ووالتر سكوت، و«البؤساء» و«نوتردام دى بارى» لفكتور هوجو،
ودون كيخوتى لثيرفانتس.

هذا عدا الكتب العربية الحديثة كدواوين عبد الرحمن شكرى
والعقاد و خليل مطران وأحمد رامى والكاشف وأحمد محرم، ورسالة طه

حسين في «نكري أبي العلاء» وكتب المنفلوطي كلها ، وترجمات محمد السباعي وأحمد حسن الزيات.

وكان لابد أن يحل الوقت الذي أنظم فيه مطالعاتي. وأعانتني على هذا التنظيم مكتبة «افريمان» وقائماتها المرتبة حسب الموضوعات، وهي تحتوى على أعلام الكتب فى التاريخ والتراجم والقصص والأدب التمثيلى، والرسائل الأدبية فى أهم اللغات. وكان الكتاب منها يباع مجلداً بسبعة قروش ونصف القرش، لا غير.

وقررت علينا فى السنة النهائية بالمرحلة الثانوية قصة «حياة جيسون وموته»، من شعر وليام موريس، و «قصة مدينتين» لتشارلز ديكنز فأثارت فينا هذه القصة الأخيرة رغبة الاطلاع على أخبار الثورة الفرنسية. أما قصة «جيسون» فقد فتحت آفاقنا على عالم الأساطير اليونانية، وقربتنا إلى «الأوديسية» و «الإلياذة»، فقرأت هذه الأخيرة فى ترجمات الشاعر بوب، واللورد داربى، وسليمان البستاني. وقدمتنا الإلياذة إلى شعر الملاحم فطالعنا «الإلياذة» لفرجيل، واللوزيادة لكاموينش، و «الفردوس المفقود» لميلتون. وتعثرنا فى مطالعة «الكوميديا الإلهية» لدانتي.

وشجعت هواية التمثيل متابعتنا لأدب المسرح، بدءاً من اليونان فالكلاسيكيين الفرنسيين فشكسبير ومارلو وبومنت وفلتشر، وبن جونسون.

والأدب القصصى بعد قراءتنا فى المدرسة لاستيفنسون، ورايدر
هاجارى وأنطونى هوب وديفو وديكنز، بدأناه من «توم جونز» لفيلدينج،
وانتهينا إلى توماس هاردى، مارين بٹاکرى واللورد ليتون وجورج
إليوت، وبنات برونٹی.

آسف لهذا الإسراف فى السرد الممل وأرجو ألا يؤخذ هذا على أنه
استعراض أو تفاخر. إنما أحاول أن ألقى ضوءاً جانبياً على حياة جيلى
فى سن المراهقة وما بعدها، وعلاقته بالثقافة الأدبية. ولا أزمع أننى
كنت أفهم كل ما أقرأ فهماً كاملاً، بل كنت أشبه بالسائح المتعجل،
بهره ذلك العالم العجيب، أبدعته عبقریات القرون. ولقد عدت إلى
كثير من تلك الكتب فصححت آرائى فيها وعمقت فهمى لها.

لم أكن وحدى فى تلك الرحلات الذهنية الممتعة. فما إن عرفت الدنيا
خارج المدرسة، بعد ثورة ١٩، حتى وجدتنى أجمع إلى رفاق ذكرت
بعضهم فى الفصل الماضى، مروا بتجارب مماثلة فى القراءة والاطلاع.
ولقد ظفرت فى محمد رشيد بموسوعة اطلاع مدهشة فى الأدب
والفن وكان رحمه الله يتقن اللغات العربية والإنجليزية والإسبانية
والألمانية، وافترقنا وقد بدأ بتعلم الروسية.. إعجاباً بلينين.

كما عرفت فى حسن محمود إدراكاً عميقاً لعصر الإحياء الإيطالى.
ولفن الموسيقى الأوربية. وعندما التقيت لأول مرة بالمستشار محمد
طاهر راشد أدهشنى أن أجده منكباً على مطالعة.. كل بلزاک.

هل كانت لى محاولات أدبية خلال ذلك التحصيل الأهوج ؟ بضع قصائد لم أحتفظ - لحسن الحظ - بشيء منها ، وقصة طويلة نقلتها عن فيلم فى سينما أوليمبيا عنوانه «الحب والشرف» ، أو الهارب من الجندية» تجرى وقائعه أيام نابليون. وعندما أتممتها أخذنى والدى إلى صاحب له من رجال الصحافة، تصفحها. وفيما كنا نتداول فى أمر نشرها ، علمنا من أحد أعضاء شلة أبى بأن كاتباً سبقنى إلى نقل تلك الرواية عن السينما، ونشرها.

إنما جاءت محاولاتى الأدبية الأصيلة بعد ثورة ١٩ واجتماعى بآل تيمور، ثم بأعضاء المدرسة الحديثة. وقد بدأتها بأسلوب رومانتيكى عرف فى زماننا باسم الشعر المنثور، وكان موضع سخرية صاحبة من مدرستنا الحديثة. وكان شالوم داود بن مسعودة فيلسوف تلك المدرسة، وطبيبها المجلى، يسمى ذلك الأسلوب المهجن «النثر المشعور»، مما عجل بشفائى منه.

وما من شك فى أن المرحوم محمد تيمور هو الذى أثار فى أخيه محمود، وفيمن حولهما الرغبة فى معالجة القصة القصيرة التى تخصص فيها وإمتاز بها إلى اليوم صديقى محمود تيمور.

وإذ بدأت مرحلتى فى القصص بحكايات رومانتيكية، تحمل بعض آثار جبران، فقد برئت من حمى المراهقة الأدبية، وانتهيت بفضل تشيخوف إلى الواقعية مؤسسة على تجاربنى المحدودة بقصر العينى،

وبشطحاتنا الفنية فى رمضان بحى الأزهر، وجولاتنا الليلية فى أحياء
الملاهى البريئة وغيرها.

وفىما عدا قصة «السبع الحلاوة»، وهى من ذكريات الطفولة، وقصة
«العنبر رقم .»، وصورة لأديب سكندرى أعجب بها فى وقتها الأخ
إبراهيم المصرى، فإن كل ما سوت من شعر ونثر فى ذلك الزمان جدير
كل الجدارة. . بالإهمال والنسيان.

ولقد ختمت حقبتى الشعرية سنة ١٩٢٢ بنص أوبرا «ليلة
كليوباترا» على رواية قصيرة لتيوفيل جوتيه بهذا العنوان،
وقدمتها لمسرح الأزبكية «شركة مصر للتمثيل والسينما» ولحنها
المرحوم داود حسنى. وما أكثر ما يسألنى الأصحاب عنها، فأنكر
وجودها، ولكنى واثق من أن نصها مدفون بين الكراسات والكتب فى
خزانة ما، ولا أنوى أن أطلع على سلم وأعفر نفسى بحثاً عنها. . أهم
ما فيها نوع من التحرر الشعرى، والتصرف بالتفاعيل تصرفاً يرسم
للموسيقى طريقه إلى تلحينها. واستعدادى لهذا التحرر مرجعه
إعجابى بشعر عبد الرحمن شكرى، ثم تمريناتى فى ترجمة الشعر
الأجنبى إلى شعر غير مؤسس على العروض العربى، وإنما على إيقاع
الشعر الإنجليزى. جربت ذلك فى قصيدة «ليسيداس» لميلتون وبضعة
أبيات من مرثية اللورد تنيسون لصديقه آرثر هلام، وعنوانها «ان
ميموريام».

وآخر ما كتبت من شعر منشور كان رثائي للمرحوم محمد تيمور ،
وقد نشر بالسفور فوق إمضائي بعنوان «مرسياس» ، واكتفت الصحيفة
بكلمة «مرثية» تحت العنوان. وواضح من عنوانها أنها تقليد مراهق
لقصيدة «ليسيداس» ، وقد حملتها إشارات كثيرة إلى الميتولوجيا
اليونانية ، مثلما جاء في مرثية جون ميلتون.

هذه الصورة لجيلي تبدو مشوشة ، لأن حقيقتها كانت مشوشة ، ولن
أرتكب خطأ الشيوخ فأزعم بأن كنا وكنا. نحن لم نكن شيئاً مذكوراً.
والفرق بين جيلنا والأجيال التي تلتنا يتلخص في كلمة واحدة:
«الجامعة المصرية» وكلية الآداب بها.

ما أشبهنا في شبابنا بقرصان الأدب والفن ، حياتنا الذهنية
والعاطفية مغامرات لا نظام فيها ولا قانون يحكمها. أما الأجيال
التالية فقد وجدت في الجامعة (كلية الآداب) من ينظم حياتها
العقلية ، ويقنن لها.

وأقرب ما وصلنا إليه نحن في اللغات القديمة كان . جذور
اليونانية واللاتينية وقد أفادتنا أعظم الفائدة في دراستنا الطبية ،
والعلمية ، فحسب .

بينما مهدت الجامعة المصرية لطلبتها ، وبخاصة في سنواتها
الأولى ، سبيل تحصيل الطلاب لغير قليل من تلك اللغات القديمة
أساس الحضارة الغربية في أهمها وأجملها. ولو قدر لي أن أعيد حياتي

التربوية لما ترددت في أن أبدأ بتعليم أربع لغات: العربية واليونانية واللاتينية. . . . والموسيقى، قبل أية لغة أخرى !
والخطأ الأول في تعليمنا هو قلة ما كانت تسمح لنا المدارس بتحصيله. ما زلت أزعم أن السنين العشر الأولى في حياة المصريين يذهب أكثرها ضحية لفلسفة البدا جوجيين.
وما فتئت أنصح الشباب، الذي يسألني النصيحة: لقد ضيعت عليك المدارس في عشر سنين من حياتك الكثير من مقومات العقل والوجدان. اجتهد في أن تعوض ما فات. في السنين العشر المقبلة، بل العشرين، بل الثلاثين.

قصة شغفى بحضارتنا الأولى

يَجْرَى قلم الكاتب بجملة تنم عن فكرة طارئة وَمَضَتْ أثناء الكتابة، يعبر عنها بصورة سريعة وهو غير مدرك لأبعادها. مثال ذلك قولى فى الفصل السابق «ما أشبهنا فى شبابنا بقرصان الأدب والفن» لم أدر وأنا أضع تلك الصورة الكلامية أننى أسير غورًا (اعرف ما بداخله) بعيدًا فى تكوين حياتنا العقلية والوجدانية. فالقرصنة هنا تعنى الخروج على القانون والنظام. وقد خرجنا حقًا على نظام تعليمنا. وقوانينه البداجوجية، عندما غامرنا فى معارج الأدب، وركبنا عباب فنون لم تكن وزارة المعارف تعترف بها فى ذلك الزمان البعيد، بل كانت تعتبرها، كالفراغ والجدة «الغنى»، مفسدة للمرء أى مفسدة.. كالموسيقى والتمثيل والتصوير. ولقد حكيت فى فصل سابق كيف مزق المدرس رسمًا بالفحم على ورق الجرامون، حاولت فيه نقل صورة من لوحة أو كتاب.

كنا نوعًا من الخوارج على تعليمنا عندما زهدنا فى الأدب الصغير والكبير، وأدب الدنيا والدين، وما فيها من حكم ومواعظ، ورحنا ننهل من آداب العالم عربية وغربية، غثها وسمينها، بقدر مداركنا، وما حصلنا من لغتنا واللغات الأجنبية.

ولم تكن دروس التاريخ والجغرافيا في مرحلتنا الابتدائية، بخير من دروس اللغة العربية. فالجغرافيا، تلك المادة الجذابة، ومن أحب العلوم إلى نفوسنا في قابل - أول - الحياة، نزلت بنا «كائنة» عظمى حتى كدت أسقط بسببها في الشهادة الابتدائية.

لأن المدرس لم يكن يعنى بأكثر مما يسميه شرح الدرس، وهو لا يعدو تفسيراً قاصراً لما في الكتاب المقرر. فتركنا المدرسة الابتدائية ونحن لا نعرف عن الجغرافيا إلا أنها أداة تعذيب تتألف من أنهار وحاصلات وبلدان، تختلط بمعلومات عن الشمس والقمر والفصول، والبحر والبر والجبال والرياح.

وكما كان النحو قواعد تحفظ دون فهم لمنطقها الأساسي، فقد كانت الجغرافيا معلومات مرصوفة لا أساس لها في وعينا القاصر. ومصيبة هذا النوع من التعليم أنك، إذ لا تفهم، تلجأ إلى «الصم» وإذا أثقلت ذاكرتك بالحفظ الآلي، جاءت إجابتك كالمشى على الصراط، قد تعبر الهوة، وقد تسقط في الجحيم.

وربما بدا التاريخ أقرب من الجغرافيا، لما لهذه الأخيرة من حاجة ماسة إلى المعية الأستاذ وخبرته، وإلى تموينه بالأدوات التعليمية الضرورية. وهذه لم تكن تتعدى في مدرستنا بضع خرائط، وكرة أرضية ماسحة. وهل توجد مادة أقرب إلى الأفهام من مادة التاريخ؟ ومع ذلك فقد فجعنا في مدارسنا الابتدائية بتاريخ

للمصريين القدماء يصيب الولد بعقدة أو جرح نفسى «تروما» ، من ناحية أسلافه العظام، عندما يقتصر التاريخ على سرد أسماء ملوك تنتظم فى أسرات، أسماء كحجارة من سجيل، لا حياة فيها. لأن الماضى، وبخاصة الماضى السحيق. إنما يحيا بحضارته لا بحفظ أسماء ملوك، وذكر وقائع ملفقة، تختلط فيها خرافات هيروودوت، بشذرات من «العهد القديم».

وكان من حسن حظنا بالمدرسة الثانوية أن يصحح وعينا بالجغرافيا، وفهمنا للتاريخ، أساتذة ممتازون حقًا، بشخصيتهم أولاً ثم بما أكملوه فى خارج البلاد من تعليمهم.

بل كان لدرسى الجغرافيا والتاريخ أثر عميق فى توعيتنا الثقافية من جراء عنايتهم بنا خارج قاعات الدرس، فيما عرف بالجمعيات العلمية (النشاط المدرسى حالياً). فقد كانوا ينظمون لنا الرحلات والمحاضرات لتتعرف على حقائق جغرافية وتاريخية، لا علاقة لها دائماً بما تلقينا أو نتلقى فى قاعات الدرس.

لاشك أن متخصصى التربية يقدرّون معنى هذه الحقيقة العجيبة: وهى شغف التلميذ بكل ما ليس درسًا، وحصّة، وامتحانًا، وقرفًا. أفلا توجد طريقة بيداغوجية، ومدخل إلى التدريس، ينسى التلميذ همه وغمه، ويخدعه عن نفسه. وعما يهدده فى امتحانات آخر العام، بأن يتحول التدريس إلى نوع من الهواية الحرة؟

لقد استقطاع مدرسو الجغرافيا والتاريخ واللغات الأجنبية أن يوائموا بين دروسهم، وبين المعارف العامة عندما شجعوا فينا الاطلاع الحى، بالرحلات والجولات، وبتوا فينا حب الكتب، عندما تحررتنا من ابن المقفع والماوردي والمواعظ، ووسعوا آفاقنا وفتحوا لنا متنزهات الفكر، ومغاني الفن.

وأرجو أن أحدثك في فصل مقبل عن أثر أستاذ التاريخ، المرحوم محمد عبد الرحيم في تعلقنا بالمرسح. يكفي أن نعرف الآن بأن ذلك الأستاذ الفاضل، كان مؤسس جمعية أنصار التمثيل، ورئيسها الأول.

كان محمد عبد الرحيم مدرساً ممتازاً وضع بين أيدينا كتاباً من تأليفه، ليس ذنبه أن يجيء جزء كبير منه خاصاً بتاريخ آل عثمان. فقد كان هذا مقسراً علينا، ولا تنس أن آخر دروس تلقيتها في التاريخ كانت في عام ١٩١٤ - ١٩١٥، وأن زوال السيادة الاسمية لتركيا حدث في أواخر ١٩١٤، وأن الشعور القومي في البلاد كان متيمماً بحب الدولة العلية، والبادشاه، ظل الله على الأرض. والحق أن دراسة إمبراطورية آل عثمان كانت تثير فينا ذلك النوع من الإعجاب البدائي بالفتوة العسكرية، وبما حققه الأتراك العثمانيون من التوغل في أوربا حتى أسوار مدينة فيينا.

المهم أن محمد عبد الرحيم حبيب إلينا دراسة التاريخ، كما أن عبد الرحمن فخري وعبد الملك سعيد صالحانا على الجغرافيا. ومع أن معارفنا في التاريخ المصرى القديم كانت فضيحة الفضايح، ولم نعد إليه

فى المرحلة الثانوية؁ فقد أخذت معلوماتنا عنه تتجدد فى صورة حية نتيجة لنشاط جمعياتنا العلمية بالمدرسة السعيدية. وكان الاشتراك فى كل جمعية منها لا يتعدى خمسة قروش فى العام. وإذا كان قصور ذات اليد قد حال بينى وبين اشتراكى فى جمعية «الشيش»؁ فإن ما لى لم تقصر عن الالتحاق بجمعيات التاريخ؁ والجغرافيا والعلوم؁ والرسم والتصوير الفوتوغرافى؁ والاشتراك فى الرحلات. وقد استمر نشاطى فى كل تلك الجمعيات طوال السنين الأربع؁ بل تمكنت أنا وبعض إخوانى من إضافة جمعية جديدة إليها؁ وهى جمعية التمثيل.

كان عبد الملك سعيد؁ قدس الرب روحه؁ منارة العرفان لنا فى رحلاتنا. وهو الذى تول إنشاء «مجلة المدرسة السعيدية». كان يعد لنا شروحا عن الغابة المتحجرة وألجبل الأحمر فى جولاتنا بجبل المقطم؁ وعن القلعة؁ والمساجد والبيوت الأثرية والكنائس القبطية بمصر العتيقة؁ وأهرامات الجيزة؁ ومقابر سقارة ومقابر وآثار الأقصر فى البرين. كانت أحاديث مرسله أمام الأثر الفنى. ولا أزم أن عبد الملك سعيد كان يؤكد بنوع خاص النواحي الجمالية - فقد كنا نعيش فى عصر ما قبل الطوفان ! - وإنما كان يوجه اهتمامنا إلى النواحي التاريخية. إلا أن الجمال الفنى كفىل وحده بأن يثير فى النفس أحاسيس دفيئة؁ تظهر فيما بعد. فأعجوبة الفن هى لمسته القدسية الأولى؁ ونفاذه إلى الوعى الباطن دون ترجمان.

وكان عبد الملك سعيد يشجع فينا تدوين المذكرات عن جولاتنا ورحلاتنا، ويختار من بينها أكثرها دقة وتوفيقيًا، فيمون صاحبها بالكتب - عرفت عن طريقه دليل بيديكر، وتاريخ بريستد في طبعاته الأولى ! - ويطلب إليه أن يعد محاضرة يلقيها على زملائه في قاعة المكتبة أثناء الفسحة الطويلة وسط النهار.

كما كان هو وزملاؤه - تلك المجموعة الممتازة من المدرسين التي اشتهرت بها المدرسة السعيدية في زماننا - يعدون لنا محاضرات في مناسبات علمية أو أدبية كذكرى شكسبير (مرور ٣٥٠ عامًا على مولده)، والثورة الفرنسية، وصناعة الخزف والزجاج على مدى التاريخ، واكتشاف أصقاع الأرض، وتسخير قوى البخار إلخ، يستمع إليها - من شاء - بعد نهاية اليوم المدرسي، مصورة بالفانوس السحري.

ولقد فاتني وأنا أسرد أمثلة من الكتب التي تصور اتجاهاتنا في الاطلاع العربي والأوروبي أن أشير إلى كتاب قرأته في السنة الثانية الثانوية، بالإنجليزية أولاً، ثم علمت فيما بعد أنه مترجم إلى العربية فاقنتيته، وأعدت مطالعته معرباً.

كان ذلك الكتاب - إلى محاضرات أساتذتنا خارج الدرس، وفي مواجهة الآثار - أول ما حبب إلي الاطلاع على تاريخ مصر القديمة، إذ حقق لي الحياة فيها بخيالي، مثلما عشت عصر لويس الثالث عشر، والملكة «آن» النمسوية والكاردينال ريشيليو، ودوق بكنهام،

وكيف دافع دارتنيان الغسقوتى ، وآتوس وبورتوس وآراميس (الفرسان الثلاثة) عن شرف ملكتهم ، بسيوفهم البتارة ضد مؤامرات الكردينال ، أو كما وعيت عصر الحروب الصليبية فى قصة الطلمس لوالتر سكوت .
ذلك الكتاب هو قصة «وردة» (رواية تمثل أخلاق وعادات المصريين فى عهد رعمسيس الثانى ؛ وترسم للقارئ نظام حكومتهم وما وصلوا إليه من التقدم فى العلوم والمعارف . أبرزها من الآثار القديمة ، وأوراق البردى ، للدكتور جورج إيبرس الألمانى ، وعربها محمد مسعود ، أحد محررى جريدة «المؤيد» كما جاء فى صدر الترجمة العربية ، المنشورة بمطبعة الآداب ، بشارع محمد على .

حصلت على الترجمة الإنجليزية لرواية «وردة» فى طبعة طاوختنز ، ذلك البيت السباق إلى الخير فيما يعرف اليوم فى فرنسا بكتب الجيب ، وعند الإنجليز ، بذات الكعوب الورق ، وقد ضاعت فيما ضاع من كتبى ، هى وترجمة محمد مسعود .

ولابد أن يكون ثمة ملك خير قاد خطواتى منذ أيام قليلة إلى بائع كتب قديمة أخرجت من بينها نسخة من هذه الترجمة . ولا عذر لى مع ذلك فى أن أغفل ذكر «وردة» ، فالأصل الألمانى موجود عندى منذ أعوام طويلة ، ولم يختف فى أكداس الكتب ، بل هو مائل أمامى بمجلداته الثلاثة ، طبعة لايبزيج سنة ١٨٧٩ ، أرى كعوبها المذهبة ، وسط مجموعتى الصغيرة من الأدب الألمانى .

ما كان أسرعنى إلى إخراجها، لمضاهاتها على ترجمة المرحوم محمد مسعود. ولا أحسب الكاتب المشهور راعى حرفية الترجمة، ولكن الشهادة لله بأنه لم يترك هامشًا من هوامش إيبرس فى تفسير ما يستغلق على القارئ من حياة أسلافنا. وإن أهم ما وضحت عنايته به هو صياغة الترجمة فى أسلوب عربى جزل سليم، لا يظهر فيه افتعال الترجمة أبدًا.

وحرى بنا أن نشير هنا إلى أن محمد مسعود فى الفرنسية، ومحمد السباعى فى الإنجليزية، كانا قطبى الترجمة إلى العربية فى زمانهما. وأن تمكنهما من اللغتين - الأجنبية والعربية - أخلاهما من عقدة الضعة، فكانا يتخذان حريات فى التصرف قد لا يرضى بها المتزمتون، أو غير المطمئنين إلى قدرتهم فى اللغة التى يترجمون عنها.

ولا بأس من أن أورد هنا بعض ما قدم به الشاعر خليل مطران لرواية «وردة» :

«ومن المعلوم أن اللغات الأجنبية، مما طبعت عليه من التزام الوصف الحق ومن التباعد عن الخيال إلا بقدر ما يستطاع معه تجسيم المعنى الخفى فى شكل مألوف وفى تصوير حركات النفس فى كل حال من أحوالها، أطوع بكثير من لغتنا لأغراض الكاتب فيها، وأتم تأدية للانفعالات الوجدانية والأفكار.. فالذى سرنى فى «وردة» أننى قرأتها

عربية كأننى أقرؤها فرنسوية، وعجبت لما أوتى مُعَرَّبُها الفاضل من الذكاء والاقْتدار وملكات الإنشاء، الجامعة علماً، الراسخة متانة، اللينة قبولا لانطباع الصور الجديدة.. فليكن ختام ما أذكره عن كتاب صديقى محمد أفندى مسعود، حث كل مصرى على اقتنائه، فإنى قلما وجدت أحداً من هؤلاء الإخوان الكرام مطلعاً على تاريخ بلاده، ولو كان لا يتكلف سوى تلقيه عن الأجانب الذين عانوا أشد المتاعب فى جمعه له، واهدائه إليه».

«وانه لمن الأمور الثابتة بالاختبار أن الأمة التى لا تعرف ماضيها، لا تدرك حاضرها، ولا تحسن التهيؤ لمستقبلها».

وليست قصة «وردة» مع هذا من أعلام الأدب الألمانى، إلا أن أهميتها لنا هى فى تصوير ما يتخيله عالم كبير بالآثار وكاتب ناضج الخيال، عن الحياة المصرية القديمة. ولقد دهشت وأنا أتصفح الرواية أخيراً أننى ما زلت أذكر بعض مناظرها حية أمامى. فى بيت المحنط، حيث حملت الأميرة «بنت آفات» الطفلة وردة إلى أهلها، وأسرعت تضرب باب المعبد تستنجد بطبيب لإسعاف وردة فيخرج إليها الشاعر بنطاؤور: «ولما فتح باب الهيكل برز منه كاهن فى مقتبل الشباب، وعنقوان العمر، تدل هيئته على رفعة مقامه، وسمو مكانته. فاستفهم من القوم عن السبب الذى جاء بهم إلى هذا المكان فى وقت العبادة. فتأهب «بعاكر» للكلام، وخشيت ابنة الملك أن يبادر الكاهن بكلام فظ يستاء

منه فنهضت قائلة: أنا بنت آفات كريمة الملك رعمسيس، وهذه الجالسة فى الهودج «نيفرت» زوجة مينا الراسخ فى الشرف والنسب.
إلخ إلخ. .»

ثم هذه الفقرة فى مجمع الكهنة عن الشاعر بنطاؤه: «فقال رئيس المنجمين: لا ريب فى أن الآلهة أجزلوا العطاء لهذا الشاب وأفاضوا عليه المواهب، ولكنى أنست منه استبداداً فى الرأى أزعج خاطرى، وانشاقاً عن المذهب المتبع.. وقد أودع فى أشعاره أفكاراً أو سوانح.. تخالف القواعد الدينية المقدسة، كان ينبغى عليه التدبر والتروى قبل وضعها حيث يخشى أن تكون داعية لكشف أسرار مذهبنا، وإضاعته فى أفواه العامة. وإنى أسوق على سبيل الاستشهاد بعض أشعار له يخشى من ضررها فى المستقبل، ما دمننا نتغنى بها استحساناً، ويحفظها عامة الشعب، وخاصته شغفاً بها وافتتانه، وها هى زى: :

«هو الواحد الدائم القهار المنفرد بالخلق، المبدع لجميع المخلوقات، المحيط علمه بجميع الأسرار. . من تأمل بعين فكره فى مظاهر الكائنات، شاهد فاطرها - خالقها - فى كل صورها ومعانيها، واستدل على أنه الواحد الأحد الذى لا يحول ولا يزول» .

ويكتب إيبرس فى الهامش «هذه الأشعار من النشيد الذى نظمه بنطاؤه فى تمجيد «آمون» وقد وجد مكتوباً على البردى المحفوظ الآن بمتحف بولاق، وترجمه غريبو وسترن».

ولقد فتحت تَوْأ كتابًا فرنسيًا في تاريخ الأدب الألماني فوجدته يقول
عن جورج إيبرس:

«عالم بالآثار المصرية، ولد في برلين سنة ١٨٣٧ وأحيا أسلوب
الرواية التاريخية التي أبدعها والتر سكوت ولقد وقفت رواياته
التاريخية مدى عشر سنوات جنباً إلى جنب والقصة الريفية، والرواية
الواقعية. وقد صور في «وردة» (١٨٧٦) عصر رمسيس الثاني، وفي
«الشقيقات» عصر البطالسة. وفي «أنا إنسان» عصر الشهداء، وفي
«سيرابيس» تدمير مكتبة الإسكندرية، وفي «عروس النيل» (١٨٨٦)
الفتح الإسلامي لمصر. . وفي هذه الكتب عنصران لا يأتلفان تمام الألفة.
فنحن نعجب بقدرة الكاتب على الوصف، ولكننا تأخذ حذرنا عندما
يحاول طبخ المعارف الأثرية في مغامرة خيالية. وحرى بنا ألا ننسى أن
جورج إيبرس ابن القرن التاسع عشر، حتى لنشاهد كهنته المصريين،
وكانهم جلسوا إلى دروس هيجل وسبينوزا».

obeykandl.com

يدخل هواة المسرح

نسمع - ولم نر - أن الجماهير في أوروبا تعبر عن عدم استلطفها، أو عن غضبها، بإلقاء الطماطم والبيض الفاسد على المغنى، أو الممثل أو ما شابهه. ولكنى شهدت طريقة بلدية عبر فيها الجمهور عن تدمره من نشاز الغناء بقذف المسرح «بالبيض . . بياض الحائط»، لا بياض البيض ! فكيف كان ذلك؟ قال زعموا أن مسرح الكلوب المصرى كان سربا، أو قاعة تحت الأرض بخان جعفر، تدلف إليها على مستوى الأرض فتجد نفسك فجأة فى أعلى التياترو، أو تنحدر على سلم السرداب، فإذا أنت فى الصالة. ورواية الليلة هى «عايدة» (راجع أعمال سليم نقاش، اختيار وتقديم الدكتور محمد يوسف نجم)، تقلد فيها فرقة حى الحسين ما يجرى على مسرح الشيخ سلامة حجازى، قياساً مع الفارق فالفرقة فقيرة، واليد قصيرة، والأربعة أو الخمسة الذين يقومون بدور الكورس يكاد يغنى كل منهم بطريقته، على ليلاه، وعايدة كثيرة ألحان الكورس، أو كما جاء فى «أسماء الأشخاص وبيانهم»: جوقة كهنة عبدة أصنام، وجوقة رؤساء حرب مصريين، وجوقة شعب مصرى، وجوقة بنات متخصصات بخدمة أم نريس إلخ (وعدد كل جوقة حسب الإمكان والمناسبة).

وحين يضيق أعلى التياترو بالنشاز وما إليه، يأخذ بعض جمهوره يخلع بياض الحائط، ويرجم به المسرح، دون إيذاء، فالبياض يبلغ طرف المسرح متفركاً، ويسقط على الخشبة رملاً. ويتبادل المنشدون والجمهور فصلاً من مختارات السباب، وتجرى مصالحة واتفاق على أن ينتظم الكورس بقدر طاقته، وأن يبذل السميعة بعض سماحتهم، على قدر طاقتهم، ويبدأ الكورس: «ايها الفتاح هبنا نعمتك - ورحيم أنت أظهر عظمتك» إلخ.

وكم أود أن أسرد بعض ذكريات الطفولة عن مسارح الأحياء: الكازار بالماوردي، ودار السلام والكلوب المصري بخان جعفر، وكيف كنا نعود إلى البيت «ونلغمط» وجهنا بسخام «بسواد» الورق المحروق ونصرخ في ديدمونة أمام المرأة: المنديل.

وانتهى عبث الصبيان ذاك بالشهادة الابتدائية، ويزعم الناس حولنا أن تلك الشهادة خولتنا الحق في لقب أفندي، مما أضفى على دخولنا المرحلة الثانوية شيئاً من الجد والتزمت، والعزم على الإقلاع عن الجمباز والكرة ومطالبة ديدمونة بالمنديل.

ثم يحدث أمر يصعب تصوير أثره علينا، وهو أن نسمع، ونحن في سنة التحضير لشهادة الدراسة الثانوية قسم أول (الكفاءة)، بأن أستاذ التاريخ محمد أفندي عبد الرحيم سوف يظهر على المسرح الحقيقي بالمدينة. ثم يعرض علينا ضباط المدرسة تذاكر بأسعار مخفضة لنشاهد

أستاذنا في رواية «دافيد جاريك»، وهو من أشهر رجال المسرح في التاريخ البريطاني.

وانتقلت المدرسة السعيدية ذات مساء - أو ذات ماتينيه، لا أذكر - ناظرًا ومدرسين وإداريين وطلبة إلى مسرح برنتانيا (فيما أظن). وكان من أغرب الأشياء حقًا أن نرى محمد عبد الرحيم في ملابس عصر الشاعر بوب، والدكتورين جونسون وبرني، وعلى رأسه باروكة الشعر الأبيض، ذات «الزعرورة والفيونكة»، وهو يخطر على المسرح بسترته الحمراء المزركشة بالقصب، والذنتلا تهفهف حول رقبتة ورسغيه. وعجيب أن أذكر اسم البطلة التي أحبها الممثل جاريك وهي مس آدا انجوت، بل أن أذكر من القصة كيف اصطنع الممثل الكبير حياة صريع الغواني والخمر حتى تقلع بنت الأرستقراطية عن تعلقها بالمشخصاتي، وتنصرف إلى خطيب من اللوردات.

واشترينا نسخة من الرواية. وعليها صورة أستاذنا في دور دافيد جاريك، وهو رافع الكأس، يترنم بأشعار نواسية.

ولا أرى إلى اليوم مصدر العجب والدهشة في أن ترى على المسرح شخصًا تعرفه، في ملابس التنكر! ولو لم نتعرف على صوت أستاذنا، وتبسين ما في عينيه من حَوْل، لصعب علينا أن نرى في داخل أردان القرن الثامن عشر.. أستاذ التاريخ المحترم.

وكانت تلك الليلة مولد جمعية أنصار التمثيل، وبقدر علمنا، كان محمد عبد الرحيم منشئها، وأول رئيس لها.

كان ذلك العام الدراسي (١٩١٤ - ١٩١٥) آخر عام لنا بدار السعيدية بالجيزة، كما كان آخر العهد بمحمد عبد الرحيم في الدنيا، وكان قد أصابته العين، فمرض طويلاً أثناء الدراسة، وعاد إلينا قرب نهاية العام، ودخل الفصل أعرج ذابلاً، يحمل وسادة ويتحامل على نفسه حتى يبلغ كرسي المنصة، فيضع عليه الوسادة، ويلقى درسه جالساً طول الوقت.

انتقل محمد عبد الرحيم في صيف ذلك العام إلى رحمة الله. وانتقلت مدرستنا في العام التالي إلى قصر جناكليس (مقر الجامعة الأمريكية حالياً)، عندما استعارت الجيوش البريطانية مقرها الأصلي ليستقبل جرحى حرب الدردنيل وغاليبولي.

لم يعد التمثيل لعبة من اللعب، بل هو أمر ذو شأن عظيم. ألم نرنا ناظرنا المستر شارمن وأساتذتنا يهرعون عن بكرة أبيهم، لمشاهدة أستاذنا محمد عبد الرحيم يلعب دور البطل؟

فلم تمر علينا إجازة الصيف حتى كنا نمثل مع زملاء لنا في بيت أحدهم بجنيانة مميش رواية «في ظلمات القصر الشمالي»، وهي تمثيلية مطبوعة، ميزتها الوحيدة النافعة أنها تخلو من أدوار الإناث.

قضينا عامين بقصر جناكليس، وقد نشط زملاء «القصر الشمالي» في ناحيتين: الرسم بالفحم، والتمثيل. وكنا نجتمع في فسحة نصف النهار الطويلة لإجراء البروفات في فصل من الفصول، لا على تمثيلية كاملة، ولكن على مناظر من لويس الحادي عشر، وبالإنجليزية من هاملت وماكبث.

وذات يوم عاب علينا واحد من أساتذتنا اهتمامنا بتلك الروايات الأجنبية، واقترح أن نضيف إلى برنامج تدريباتنا.. منظر وفود العرب على كسرى. فأخرجنا أكبر إحراج حيال مجموعة من خطب تقعع بالشنان، وتدمغ كل شعوب الأرض بصفات من أمثال «المنحقة» و «المقشرة» !! ولم يخلصنا من الورطة سوى اختيارنا لمنظر من تمثيلية اسمها «امرؤ القيس» تأليف واحد من أساتذة اللغة العربية بمدرستنا، حرص على أن يجيء أسلوبها على مستوى المعلقات السبع أو العشر.

وعندما استأذنا الناظر في إقامة حفلتنا النهارية بقاعة المكتبة، طلب مني نسخة أعمال شكسبير، وأجرى قلم رقابته الصارمة على بعض فقرات مما اخترنا، لما فيها من مجازات غير مؤدبة. ثم منعت من الاشتراك في الحفلة، عقاباً لي على نسياني موعد مباراة الجمباز لسنة رابعة فصل رابع، ولم يسمح لي بغير إلقاء قصيدتي في الرفق بالحيوان.

ولم تتقدم جمعيتنا التمثيلية فى جهودها إلى أبعد من ذلك. بيد أن نشاطنا انتقل إلى خارج المدرسة حينما دلتنا أهل الخير على جمعية تمثيلية، عرفت فيها ممثلها الأول الأخ زكى طليمات. وكانت تعد رواية ميلودرامية «تاجر الأرواح» تأليف مدرس ثانوى. وأذكر فى اجتماع لنا أن اعترض البعض على ما يمكن أن يتطرق إليه معنى العنوان، من أنه تاجر «الملبس والفونضان»، وكان يعرف فى زماننا باسم تاجر الأرواح. وضحكنا ممن اقترح علينا تسمية الرواية «تاجر النفوس» عندما ظهر أن كلمة النفوس تعنى تاجر المبار وفضلات السلخانة!

وأذكر منظرًا فى ختام الرواية يفتح فيه الشرير قمطرًا تنطلق منه رصاصة ترديه، وإذا بالسدس المفروض أن يطلق من الكواليس فى تلك اللحظة. يضرب عن العمل (كالعادة!)، مما اضطر الشرير أن يصعق بدون سبب ظاهر!

كما أذكر زميلا دخل المنظر الأول (وهو صالون) وقد نسى القبعة العالية مسلطحة إلى الخلف فوق رأسه، ولا ضير من هذا فقد كانت معارفنا عن بروتوكول الخواجات قليلة. وإنما واجه الزميل جمهوره ببزة البونجور، والبنطلون الرمادى.. وقد انفرجت مغاليقه.

كانت تلك مناظر مألوفة فى تشخيص الهوة، ناهيك بالشوارب المستعارة تنعكس فردة منها وتميل بزاوية قائمة ما بين الشفة والفك، وباللحى المنهارة على النحور والصدور، يصر الزملاء على إعادة لصقها. دون جدوى!

ومثلت جمعيتنا رواية «شاترتون» لألفريد دوفينسى (ترجمة المرحوم عباس حافظ)، وقصة مدينتين لتشارلز ديكنز (ممسرحة في إنجلترا)، وقد اشتركت في الروايتين وبأدوار صغيرة، تدخل في عداد الكومبارس الناطق، أما في «تاجر الأرواح» فقد أسند إلى دور. الملقن، عندما مثلتها الجمعية على مسرح بحلوان.

وفي عام ١٩١٧ شاهدت الشيخ سلامة حجازي لأخر مرة في رواية «عظة الملوك» وسمعت فيها لحنًا صينيًا جديدًا للشيخ تغنيه الجوقة برئاسة عبد العزيز بشندي على كلام عجيب أذكر منه «شن شن كاره شن شن» ! وكانت عضويتي بالجمعية التمثيلية سبيلًا إلى حضور بروفات فرقة عبد الرحمن رشدي الأولى. وهناك رأيت سليمان نجيب لأول مرة، وعرفت الممثل الكبير عمر وصفى، كما حضرت بروفات فرقة جورج أبيض عندما انضم إليها الصديق زكي طليمات، ورأيت يمثّل دور دوق دي نيمور في «لويس الحادي عشر»، ورأيت هناك أيضًا السيدة روز اليوسف لأول مرة.

لم يغير هذا النشاط الخارجي شيئاً من نظام حياتي الداخلية، ومحاولات تطويع الأسلوب للتفكير الحديث بترجمة مختارات من الشعر الإنجليزي، وبعض مناظر من تمثيلات سبقت الإشارة إليها. ولم نعد إلى المسرح، في مرحلة دراستنا العالية، إلا كمترجمين لتمثيلات ضعيفة: «هارولد» للشاعر اللورد تينيسون، و«غادة ليون»

للروائي اللورد ليتون. و «إخوان السلاح» لكاتول منديس. وقد رأيت في هذه الأخيرة الأخ فتوح نشاطي يخطو خطواته الأولى على المسرح. مع نادي المعارف، الذي أخرج أيضًا رواية «غادة نيون». وتقاضيت جنيهاً واحداً عن كل من الروائيتين «مقدم أتعاب». «دون مؤخر أكلوه علينا» ! وترجمنا ومصرنا فارص موليير «طبيب رغم أنفه» ليمثلها نادي مدرسة الطب، وكنا قد انتقلنا في هواياتنا إلى الموسيقى، فلم نشارك في التمثيل بحفلة النادي السنوية، بل حملنا بعض عبء البرنامج الموسيقي . .

ولندع حكاية الموسيقى إلى الفصل التالي.

الموسيقى الصعبة

قد

يكون مفهوماً أن تعيش عمرك، وتطالع الآداب العالمية في لغاتها، أو أصدائها فيما بين أيدينا من كتب عربية، وأن تقبل على الفن التشكيلي في أحدث ظواهره وآخر صيحاته. ولكن من هم أولئك الذين يتحررون من ربقة الألحان المشجية المبكية، والأغاني الصادحة «تلعلع» بها حناجر ذهبية، ليستمعوا إلى موسيقى الخرس البكم، تؤديها آلات مصلحة تصليحاً طارداً لأرباع أو أثلاث أو أخماس النغم، لا تكاد تسمع منها لحناً واحداً «عليه الطلا»، دون أن تقتحمه ألحان أخرى يختلط حابلها بنايلها في هرج ومرج لا يعرف له أول من آخر. مزامير وصفافير من فضة أو خشب، وبوقات من نحاس، وطبول «كقزانات المسمط»، وزخمات أوتار تذبذب تحت لمسة أقواس طوال وقصار، أو تغمز بالأصابع، وزول يوليك عرض أكتافه، ويهوش بعصبية، يزعم بأنه يرقص عليها الآلات، وهو وحده الراقص بها. ثم ما تلك التمثيليات تؤدي طوال الوقت بالغناء المزعج، يتبارزون فيها صادحين، ويعالجون سكرات الموت بالصوت «فاقعين»، يختلط فيها نشيد الجماعات بالأحان الأفراد، وتمتزج هذه بعضها ببعض مشوشة مخلطة. وما تلك الأغاني تجار بها حناجر رجال قدت من صلب، وتولول بها نسوة سمينات يشكون لطوب الأرض من ظلم أو هيام،

وتطالبين في غضب بالثأر والانتقام. وما هي تلك الأسماء الأجنبية ما بين ألمان واطليان، ومسكوف وأسيان، يتشوق بها طلاب الجامعات وبعض أساتذتهم ؟

وإذا شئنا أن نعرف كيف نزلت بنا نازلة الموسيقى الأوروبية تلك في آخر الزمان، فلنتهم الأسطوانات والمسجلات، وكلا البرنامجين الأوربي والثاني، وما أثاره بعض أساتذة الجامعات في نفوس طلبتهم يجتمعون حول البك - آب في المدرجات يستمعون إلى ضروب من الشرح تغرر بهم فيما تزعم من تحليل لتلك الموسيقى الأجنبية، ثم يقال لهم: إن الاستماع إليها ظاهرة حضارية لم تعد مقصورة على أهل الغرب وحدهم، وبأن هواتها انتشروا على طول آسيا وعرضها، ومن الشمال الإفريقي حتى أقاصى أو أدانى قارتنا الناهضة.

ثم يجيء أعضاء أوركسترا القاهرة السمفوني، والكورال المصري ضغث على أبالة^(١)، يخدمون على الفرق الروسية والإيطالية واليوغوسلافية، يشاركون في أوزارها الفنية، ويتفردون بأداء ما يسمونه السمفونيات والكونشرتوات والفانتازيات والقصيد السمفوني.

ويضرب المتخلفون أكفاً بأكف، مستعيذين محوقلين^(٢)، يلعنون موجات الحضارة التي جرفتنا في تيارها المخيف لتبعدنا عن قواعدا ومراسينا.

(١) ضغث على إبالة (أى عبء على عبء).

(٢) أى يقولون: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ولكن، نحن شباب ما بين الحربين: وغلما ن الحرب العالمية الأولى، نحن طليعة ضحايا الحضارة الغربية في هذا القرن العشرين، ماذا أودى بنا إلى هوة موسيقى الخواجة بيتهوفن، واله ر باخ أو موزار، والسنيور فيفالى أو فردى، والمسيو برليوز أورافيل، والدكتور بورودين، والبكباشى البحرى رمسكى - كورساكو؟ فلم يكن الفونوغراف فى زماننا سوى خشخشة وخرفشة، والإذاعة فى عالم الغيب، وكانت الجامعة أملا لن يتحقق وشيكًا. ولم تقم المربيات الأجنبية على تربيتنا حتى تعوج ألسنتنا وتبلبل أحاسيسنا. نشأنا فى الأحياء البلدية على الطقا طيق والتواشيع والأدوار والبشارف والسما عيات، وردنا ألحان الشيخ سلامة والخلعى وداود حسنى وسيد درويش. فما الذى غرر بنا، وحبب إلينا الموسيقى الغربية فى أرفع وأصعب منجزاتها؟

و الجواب ميسر سهل لمن يقرأ لنا، ويتابع عوامل تطورنا من شغف بالآداب العالمية، وهواية للتمثيل والتصوير، وما ندين به لأساتذتنا فى المرحلة الثانوية من تفتح أذهاننا لما وراء حدودنا من فكر ومعارف. بيد أن أستاذًا واحدًا من هؤلاء لم يجر لسانه بكلمة الموسيقى - وكانت شبه محرمة علينا - ولا باسم من أسماء عظمائها. ولعل قراء المنقلوطى يذكرون رواية «تحت ظلال الزيزفون» لألفونس كار، وما يرد فيها من إشارة إلى المدعو بيتهوفن وألحانه. ولعلها كانت أول مرة أرى فيها ذلك الاسم مكتوبًا، وإن كنت قد سمعت به عرضًا من قبل.

كانت الموسيقى العسكرية تقبّال كراسى كشك حديقة الأزبكية :
موسيقى الجيش المصرى عصر الجمعة، وموسيقى البريطانيين عصر
الأحد. فمن لا يذكر الصول عامر غزال وبرامجه تداول بين الموسيقى
المصرية والموسيقى الغربية. أو الويلش باند وهى تقدم افتتاحيات
وفانتازيات (أى منتخبات) من أشهر الأوبرات، إلى أدوار من الموسيقى
الخفيفة، مثل مارشات سوزا، و «على ضفاف نهر سوانى»، وأوبريتات
جلبرت وسوليفان ؟

وكانت دور السينما الكبيرة وسط المدينة تعمل فى نفوسنا عملها
الخفى، عن طريق مجموعات الموسيقى تجلس تحت الشاشة، وتعزف
مختارات توائم الأحداث الجارية فى صمت كامل على الشاشة. ولم يكن
يوجد بالقاهرة أو الإسكندرية من فندق كبير أو كازينو أو مشرب شاي دون
أن يستخدم عددًا من خيرة العازفين، الواردين من كونسرفتورات إيطاليا،
غالبًا، يلتفون حول البيانو ليؤدوا نماذج طيبة من الموسيقى الغربية.

من «تحت ظلال الزيزفون»، وحول كشك الموسيقى بحديقة
الأزبكية، وفى ظلام السينما الصامت يسنده أوركسترا قد يبلغ عشرة
أفراد أو يزيد، تنبهت فىنا حاسة جديدة، تختلف اختلافًا كبيرًا عن
إحساسنا بأغانينا وألحاننا وكأننا خلقنا خلقًا جديدًا.

إلى أن طالعنا ذات مرة على باب سينما كليبر - ركن عماد الدين
وما كان يعرف فى زماننا بشارع بولاق - إعلانًا عن شىء اسمه

الأوركسترا السمفونى، وبرنامج وضعت فى أوله هذه الكلمات:
بيتهوفن: السمفونية السابعة.

وكان هذا الأوركسترا يتألف من العازفين المجيدين بالقنادق والسينمات ومشارب الشاي، لا يجدون متسعاً من الوقت لاجتماعهم إلا بين الحادية عشرة صباحاً والواحدة بعد ظهر يوم الأحد. وكنا طلبة بالمدارس العالية، لا تقيد حريتنا لحضور المحاضرات، فارتكبت أول زلة عندما قررت أن أزوغ من محاضرة الكيمياء بما كان يعرف بسنة أولى طب. وهكذا قدر لى أن تعتدى موسيقى بيتهوفن وما إليها على محاضرات الكيمياء، يوم الأحد، وكان ذلك أول المنحدر إلى الخلل فى دراستى الطبية الأولى، حين حرصت على الاستماع كل صباح أحد إلى الحفلات السمفونية بسينما كليبر، يقودها ميشيل بولياكين، أو بقاعة الكورسال الكبيرة بقيادة إدجار بونومى.

كنت وحدى فى تلك المغامرة التى حاولت أن أستدرج إليها بعض زملائى، فطار أولهم منى عندما أخطأ فى قراءة عنوان افتتاحية تأليف ليتولف، اسمها «كليوباترا» فطالعتها «كوليوبترا»، إذ كنا ندرس فى ذلك الوقت تقسيم الحشرات باباً من أبواب علم الحيوان.

ومال ثانيهم على، وأنا مستغرق فى الاستماع إلى كونشرتو مندلسون للفيولينة ليقول: هلا حضرت حفلات نادى الموسيقى الشرقى؟

فلم أكذب خبيراً وصاحبتة إلى حفلة النادى ذات مساء بعمارة قرب الأزبكية، وهناك رأيت وسمعت أقطاب الموسيقى الشرقية الأصيلة من

مؤسسى ذلك النسادى طويل العمر، فعرفت أن طريقى وطريق زميلى
يفترقان، وأن كنوز الموسيقى العربية شىء جدير بأن يعتنى به،
ويدرس ويحفظ ويؤدى على أصوله. ولكن على الأيقف فى طريقى نحو
التعرف على تلك الموسيقى الغربية العجيبة، والتزود بكل ما تقع عليه
يداي وعيناي وأذناى من شئونها.

وبدأت - مع زميل الطفولة، حسن فتحى - دروس الفيولينة على
أستاذ إيطالى، كان العازف الأول بمحل شاي مشهور بشارع بولاق.
وكعادتى فى الاستعانة بالكتب لمعالجة كل مشكل ذهنى لى،
انطلقت أطالع كل ما يقع لى من كتب عن الموسيقى والموسيقين، وكان
أولها كتاباً استعرتة من دار الكتب تأليف جول كومباريو عن «الموسيقى
وقوانينها وتطورها» وثانيها تاريخ الموسيقى للمؤلف نفسه فى ثلاثة
مجلدات كبيرة، وغير ذلك من تراجم كبار الموسيقين.

ولقلة فرص الاستماع فى ذلك الزمان (على العكس من الوقت
الحاضر، حيث تنتشر المسجلات الموسيقية)، سبقت معارفى الكتابية
خبراتى الفعلية بالموسيقى ومع ذلك فقد سمعنا نحو ست سمفونيات
لبيتهوفن، وسمفونية لكل من هايدان وموزار وشوبرت وشومان
ومندلسون وبرامز وسيزار فوانك، وبضعة كونشرتات وأغنيات فنية
«ليدر» لشوبرت وشومان، وقصائد سمفونية لسان صانن وشهر زاد
لرمسكى - كورساكوف و«ليلة على الجبل الأجرد» لمسورجسكى

و «فى دهاس آسيا الوسطى» لبيورودين، وأهم الافتتاحيات الإيطالية،
وافتاحيات موزار و «روسلان ولودميلا» و «كامارنسكايا» لجلنكا،
ومازلت أحتفظ ضمن أوراقى بكثير من برامج الموسيقى التى سمعت فى
ذلك العهد البعيد.

ثم انطلقت ثورة ١٩ لتخرجنا من عالمنا المدرسى الضيق. وتمهد
لنا لقاء المجموعة الطيبة من رواد الثقافة التى ذكرت بعض أسماء
أصحابها، وإذا بأغلبهم من عشاق الموسيقى الرفيعة مثلنا، وهذه ظاهرة
عجيبة: أن تسلك طريقك وحدك إلى بعض وعى تلك الموسيقى، ثم تلتقى
بشباب جدد سلكوا الطريق نفسه. ومنذ تعرفى على محمد رشيد وآل
تيمور ومحمود عزى وحسن محمود وفؤاد مرابط وشوقى بكير وطاهر
العمرى والدكتور محمد ولى ويوسف جريس ومحمود شكرى أصبحنا
نرتاد الحفلات الموسيقية فئة صغيرة بطرايبشها وسط بحر من الرعوس
العارية، أعضاء الجاليات الأجنبية، مع قلة من سيدات وآنسات الأسر
الكبيرة خلف النقاب الأبيض، نشأن بمدارس الراهبات، ودرسن
البيانو فى خدورهن.

عادت الفرق الأجنبية تحبى مواسمها بدار الأوبرا، والكورسال فكان
أول ما سمعت من أوبرات: «حلاق أشبيلية» لروسينى، و «كافاليريا
روستيكانا» لماسكانى بالكورسال. ثم «لوريلاى» لكاتالانى، و «شمشون
ودليلة» لسان صانس، و «مفيستوفيليس» لبويتسو، و «تانهويزر»
لفاجنر، و «توسكا» و «مدام بترفلاى» ليوتشيني.

وغدت القاهرة مركزًا ثقافيًا هامًا، يمر به كبار العازفين، ومجموعات الموسيقى العائلية (داكاميرا)، من أوروبا الوسطى، ومن إيطاليا وفرنسا، فتعرفت على الرباعيات الوترية، وما يقدم في حفلات العزف المنفرد.

وليس معنى هذا أننا أهملنا موسيقانا القومية، بل إنها لعلامة من علامات طريق النهضة وشهادة مخلصه لنوابغ الموسيقى المصرية في أوائل العشرينات، أن هواة الموسيقى الأوربية الرفيعة هم الذين أحبوا وآزرُوا وأخلصوا لذكرى الرواد الأوائل في تطوير الفن الموسيقى: كامل الخلعى وداود حسنى، وسيد درويش. ولقد شبت طفولتنا على ألحان الشيخ سلامة حجازى، وأدوار عبده الحمولى ومحمد عثمان. ويطيب لى أن أذكر بالخير مدرستنا الحديثة فقد كانت أول جماعة تقيم حفل تأبين لسيد درويش بتياترو حديقة الأزبكية.

مرد هذا إلى أننا من أول من أدرك ووعى الخطوات الأولى فى طريق تحرير موسيقانا القومية، وتطويعها لضروب جديدة فى التعبير. وأتيح لنا هذا الوعى نتيجة لخبرتنا بما كان يقدم فى مصر من موسيقى المجموعات الصغيرة والأوركسترا والأوبرا.

وهذا ما يسميه بعض المتجنين علينا «عقدة الخواجة». وليست هناك عقدة، ولا خواجة، وإنما هو الإيمان بكل ما هو عظيم، وصادق وجميل فى الحياة.

أفندية بحق وحقيق

أعجب رتبة في دنيانا قبل الطوفان كانت رتبة «أفندی»: لم تعرف لها براءة، ولم تحدد الفئة التي يحق لها هذا اللقب. ومع ذلك كنا نسمع بأن قاضي الإسلام التركي، سيد الجهلاء (راجع ابن إياس)، يحمل لقب أفندی، وأن ولي عهد سلطنة البادشاه يلقب بالأفندی حضر تلي، وخديوى مصر كان لرعاياه المخلصين «أفندينا»، وبنت البلد إذا تزوجت لابس بنطلون قالت: «لفندی بتاعى» وكان غلمان الأزقة إذا رأونا فى طريقنا بالبنطلون القصير، تندروا قائلين: يا واد يا فندی.

وقد لا يعرف الكثيرون أن كلمة أفندينا ترد فى السلام المصرى القديم (وهو السلام الخديوى فالسلطانى فالملكى)، الذى زعموا أنه من تأليف فردى. وهأنذا أذيع السر المهول: «أفندينا دخل الديوان والعسكر ضربوا له سلام»، وتذكرنى هذه الكلمات الجوامع ببيت الشعر المشهور:

ربابة ربابة البيت تصب الخل فى الزيت

وسنة الارتقاء جعلتنى أشهد زماناً أصبح فيه كل الناس بهوات إلى درجة أن زميلاً حلو الدعابة استطاع أن يخلصنا من البكوية العمومية بلباقة فلم نكن نتخاطب فيما بيننا إلا بقولنا: «فهمت الفولة يا معالى

الباشا؟ وأن ما لا يعرفه أبناء الجيل الحالى هو أن الرتب كانت موضع سخرية أغلب أهل جيلى التأثر. وقد أكد الزمان سخريتنا عندما سمعنا فى أواخره بمعالى الست، ورفعة الهانم، وفى أوائله بوالدة باشا ! قيل لى مثلا بعد الشهادة الابتدائية إننى آتفاً، وعلى سن ورمح، أفندى. وإذا بمدرس اللغة العربية فى أول يوم لنا بالمدرسة السعيدية وقد رأى بعضنا بالبنطلونات القصيرة، يوجه كلامه إلى ضابط المدرسة: لا يا حمدى أفندى «دول تجيبوا لهم مرضعات بقى» ! ثم أكدوا لنا بعد البكالوريا أننا أفندية بحق وحقيق. ولم يكن أمر ذلك بأكثر صحة من سابقه.

ولكن أعجب شىء فى زماننا هو أن الناس كانوا يعتبرونك دكتوراً منذ يوم قبورك بمدرسة الطب المصرية، وكنا أبناء الحضر سواء فى هذا وأبناء الريف. وحدثنى زميل من الريف عن اضطراره، قبل أن يضع قدمه على عتبة قصر العينى إلى اقتناء سماعة، وبعض الأدوية، استجابة لأهله وجيرانه فى البلدة.

ولم يكن أقل عجباً، حتى وقد تخرجت فى مدرسة الطب، أن يستدعيني صديق من أهل الفن لأعود مريضة من أهله، ولما يمض على تخرجى أسبوع، وأعترف بأننى اضطررت إلى التعجيل بطبع تذاكر الروشتات، ومراجعة بعض جرعات المادة الطبية التى توقعت أن أصفها. فسوف أكشف على المريضة، وهذا شىء خبرته، وسأجربه على أحدث

وسائل الكشف الطبي، وسأتمكن من التشخيص التفاضلي الذي أبلغنا أسراره على لسان نوابغ الطب في مدرستنا. أما أن أضطر إلى إخراج دفتر من جيبي لأنقل عنه جرعات الأدوية التي أركب منها الروشتة، فذلك أمر لا يجوز، بل يعتبر فضيحة لزميلي الفنان أمام أهله !

عندما عينت عميداً لأول كلية علوم بالإسكندرية لم تفت على أقسى الأعباء التي حملتها أنا وزملائي في إنشاء تلك الكلية عام ١٩٤٢، أن أراقب الطلبة الجدد، وهم ينتقلون من قيود التعليم الثانوي إلى حرية التعليم الجامعي، وأن أقارن بينهم وبيننا على مدى ربع قرن، أي منذ التحقنا بمدرسة الطب المصرية سنة ١٩١٧. هل كانت الظاهرة نفسها؟ لا أظن، فقد انتظمتنا في التعليم العالي قبل ثورة ١٩١٩، ودخلوا هم بعدها، وبعد غيرها من القلاقل والمظاهرات والاضطرابات، طلاباً للحرية والاستقلال. نحن دخلنا المعاهد العالية قطعاً عمياء، ودخلوها هم شباباً أبلى، وكافح في سبيل الوطن، ربما أكثر مما كافح في سبيل العلم والمعرفة.

وفدوا هم على الجامعة فتية وفتيات، وفي زماننا هاج الكتاب وماجوا في الصحف، إذ علموا بأن فتاة مصرية أصيلة. التحقت بشركة التليفونات. وكانت الفتاة تحجز وراء نقاب أسود أو أبيض، وتجلبب بملاءة سوداء، قبل أن يسمح لها بالالتحاق بمدارس المعلمات فقط!

وإذا كنا قد عرفنا الحرية في مدارسنا العالية، كما عرفوها في الجامعة فقد كنا نعيش في مجتمع لا نساء فيه غير أهلنا الأقربين، وغير خيالات، وظلال تلمع فيها عيون ساحرات، خلف النقاب، وخلال شيش النوافذ الموارب.

ومع ذلك لم يكن الفرق كبيراً في كلية علوم الأربعينات. فالفتيات ما فتئن يتعثرن في مشيتهن، ويعتبرن الفتيان بعابح، ويمارسن التكتيك الحربى المعروف بالقنفذ، حين كن يتجمعن فى صف أو صفين بالمدرجات، أو يقعدن فى ساحة الجامعة متكأكنات، والطلبة يحومون حولهن كالذئاب، باحثين عن ثغرة بين أشواك القنفذ اللاذعة ! .

لم أكتشف جديداً بعد اقتحام الطالبات لأسوار الجامعة، فقد ظل الحب هو الحب، على البعد، و«بنت الجيران» ما لبثت اصطلاحاً غرامياً عرفناه فى شبابنا، ذلك المخلوق البعيد جداً، نتحدث إليه بالإشارات الضوئية فى الليل، وبالكتابة الهوائية بالنهار. ونسترق لحظات محمومة خاطفة، يحكمها - أو يرفرف عليها إذا فضلت - الطهر والعفاف من الجانبين، مما أضفى على الحب فى زماننا رومانتيكية حامية متفجرة، أشبه بما كنا نطالعه من أشعار العذرى والمجنون، أو ألفريد دى موسيه، وألفونس دى لامارتين.

ولقد أصطحبت فى زمانى صديقاً من الأسر الكبيرة، خطب فتاة من بيئته، فلم تكن ثمة وسيلة لترى خطيبها إلا أن يوضع لها فى بنوار

بأحد المنسارح، وتجلس الخطيبة فى لوج خلف نقابها وستائر الدنتلا، لتفحصه على بعد عشرين مترا من أعلى إلى أسفل، وآمل أن يكون حياؤها قد حال بينها وبين استعمال المنظار المقرب. أما صديقى فأشهد أنه لم يسمح له حتى بصورة للخطيبة !

وصورت فى قصة قصيرة زواجا تم بين فتاة أتمت تعليمها بالمدارس الأجنبية، وهوت الموسيقى، وأتقنت العزف على البيانو، زفت إلى شاب من الأعيان توقف عند شهادة الكفاءة، كل هواياته تدور حول ماديات الحياة. صورة تخيلتها ولم أنقلها عن واقع خبرتى. ثم عرفت بعد سنوات طويلة بوقائع أثبتت لى أن خيالى فى تلك القصة لم يبتعد كثيرا عن الواقع.

وإذا لم أستطع أن أنفذ إلى نفوس أبنائى بكلية العلوم لأعرف أثر انتقالهم من المرحلة الثانوية، وانتظامهم معاً فى الجامعة، فلا أقل من أن أصور واقعى أنا منذ أكتوبر ١٩١٧ وأنا أمضى فى شارع مدرسة الطب لأطرق مرحلة الدراسة العالية.

قيل: لا تمش فى الأرض مرحاً فإنك لن تبلغ إلخ إلخ. وكان هذا القول موجه إيتا، فقد كنا ندلف إلى باحة المدرسة نافشين كالدنادى ونجتمع حول تمثال كلوت بك منشىء مدرستنا فى النصف الأول من القرن الماضى، لنناقش مسائل علمية عويصة فى الطبيعة أو الكيمياء، أو علم الوراثة، أو فكرة النشوء والارتقاء، وكان يضاف إلى دروس

الإعدادى، «المادة الطبية» كلها، ومنتحن فيها. وبعض مقدمات فى علم التشريح الإنسانى، ولا نمتحن فيها، انتظاراً لانتقالنا إلى السنة الثانية. ذلك لأن مدى السنة الأولى كان يمتد إلى خمسة عشر شهراً، فكانت تلك الدراسة الإضافية تعتبر كسباً للوقت، واستعداداً للدراسات المقبلة.

ومع أن سوء حظنا قد أفقدنا - بسبب الحرب - أساتذتنا الألمان، فإن كتبهم - ومنها ذلك الكتاب القيم للأستاذ لوس «مقدمة إلى البيولوجيا» - كانت بين أيدينا، وتلاميذهم قاموا على دراستنا. ولعل حبى لعلم الحياة قد نشأ منذ اللحظات الأولى بمدرسة الطب.

وأعرف بعد ذلك أنني أحببت دروسى الطبية كلها، ومازلت أحمل لها أقوى مشاعر العرفان بالجميل. فهى التى قومت فى العقلية العلمية، وهى التى أعانتنى على فهم الإنسان حين أوقفتنى على دخائله التشريحية والفسىولوجية والمرضية. وقد بدأت رحلتى حول الإنسان بالحيوانات الدنيا، حتى انتهيت إليه. ثم عدت إلى الحيوانات الدنيا عندما انتقلت بعد سنوات إلى دراسة الحياة فى البحار والمياه العذبة. فكأننى رحلت ذهاباً وإياباً، أو صعوداً ونزولاً، حول الإنسان، وما قبل الإنسان فى التسلسل الطبيعى للحياة على ظهر البسيطة.

ولكن، ماذا كان حال الأدب والفن، وهل اصطدم بالدراسة العلمية؟ أى نعم، كان صداماً عنيفاً جداً تمزقت له شخصيتى، وسبب لى بعض الخلل فى خط دراستى، مما أخرنى عن الصف الأول. وبعد

ثورة ١٩١٩ التي أبعدتنا عن الدرس عاماً كاملاً، عدت إلى مدرستي
حطاماً آدمياً، يتنازعه حب الفن والأدب، والفروض القاسية التي
تتطلب من طالب الطب كل وقته.

ولم أشعر بميل خاص نحو علاج الأمراض، إلى جانب شغفي
بالبحث عن أسباب المرض، في دراسة العلوم التي يبني عليها الطب
العلاجي، وهي التي تعرف في كلية الطب بالأقسام الأكاديمية. ولم أك
أفسر لنفسي المعنى الداخلى البسيكولوجي، لهذا الشغف، حتى عرفت
فيما بعد أنه يمثل الاتجاه المعروف نحو البحث العلمى.

إنما بقى لى من دراستى الطبية حب الفحص والتشخيص لكل
ما يعرض لى من شئون الحياة، فردية أو اجتماعية، سياسية
أو فنية أو أدبية.

إن العلم والرومانتيكية صديقان لدودان. ولقاؤنا الأول بالأدب والفن
كان رومانتيكياً فى أعنف ما تكون الرومانتيكية، وهى أقرب إلى
المرض من الصحة. وبفضل الدراسة الطبية، وممارسة العلوم فيما بعد،
استطعت أن أتخلص من المرض الرومانتيكى رويداً.

ولم أكن وحدى فريسة الرومانتيكية بمدرسة الطب، فقد عرفت
زملاء لى هناك يتعشقون الأدب والفن، أذكر منهم على سبيل المثال
لا الحصر، المرحومين: ناظر مدرستنا الحديثة أحمد خيرى سعيد،
والشاعر مرهف الحس، إبراهيم ناجى. عرفت ناجى من بين طلبة

الدفعة السابقة علينا، وتبادلنا الكتب والاطلاع، وأنصتنا إلى صوته المتهدج يتلو علينا أشعاره؛ وكأنه يرتجلها في التو والساعة. وأشهد لدفعتي، والدفع القريبة منها، أن تخرج منها فئة ممتازة في تخصصها، ممتازة في الفن والأدب أيضًا. يكفي أن أذكر من بينها من أملك التحدث عن نبوغه، وهو أول دفعتنا، صديقي الدكتور محمد كامل حسين، العلامة الباحث، والجراح الكبير، والأديب الفذ.

إنني إذ أستعرض في ذاكرتي تلك السنين الرائعة، وما عركناه في ثورة ١٩ وقد تحولنا من الدراسة إلى السياسة في بيت وفدى كبير، كان واحد من أبنائه رئيسًا للجنة الطلبة العليا، وكان ابنه الآخر زميلا لنا، نتلقى في ذلك البيت تعليماتنا اليومية، من الذهاب كل ليلة لنخطب الآلاف المجتمعة بالأزهر الشريف، قلب الوطنية النابض، إلى الانتظام في المظاهرات، أو مقابلة الزعماء، ومناقشتهم في ضرورة مقاطعة لجنة ملنر، أو مراقبة من نخشى أن يخالف الإجماع منهم . .

وإذ أفكر بانكبابي على دراسة الموسيقى، ومواصلة مطالعاتي في الأدب والفن والتاريخ، وإقبالي على معارض الفن التشكيلي (معرض الربيع الأول)، وتشتت حالي بين كل ذلك ودراسة الطب، وأزمة الحب التي انتابتنى وكادت تهد من كياني، لا أرى وصفًا لتلك الحقبة في تكويني إلا بما توصف به الملاحم. فقد كانت حقًا أول ملحمة من ملاحم حياتي، لم ينقذني منها سوى تخرجي في مدرسة الطب سنة ١٩٢٣،

والتحاقى بمستشفيات الرمد الأميرية، وكانت مضرب الأمثال فى
حسن الإدارة والنظام، ونموذجاً للكفاية العلمية والفنية.
حقة مليئة بمقومات الحياة النابضة المكافحة، وشبوب العاطفة
نحو الوطن، ونحو الأصدقاء، ونحو المرأة. . .
ولا أدرى بأيها أبدأ، وربما كان من الخير أن أقف عندما قدمت،
إلا أن أجمع كل ذلك فى صورة واحدة، فالعاطفة المشبوبة لا سبيل هنا
إلى تصويرها إلا بالاستناد إلى وقائعها العامة، لا إلى الفردية فيها.
فليس الهدف من هذه الصحائف تاريخ حياة فرد بعينه، وإنما تصوير
الظروف التى نشأ فيها جيلنا كله.

obeykandl.com



يا عم حمزة إحنا التلامذة

أيام من التحاقى بمدرسة الطب المصرية، توفى السلطان بعد حسين كامل، وتقرر أن يمشى فى جنازته الأربعة الأول من كل فرقة، فكنت واحدًا ممن شيعوا جنازة سلطان مصر.

ماذا كنت أعرف عن السلطان الراحل؟ لقد دخل علينا فى المدرسة السعيدية، وأنا بالسنة الثانية، فى حصة مطالعة إنجليزية، وكان عدلى باشا يكن وزير المعارف حينذاك يصحب السلطان. وكلفت أن أطلع أمامهما صفحة من رواية «جزيرة الكنز» لروبروت لويس ستيفنسون وطلب منى الناظر شارمن أن أترجم ما قرأت إلى العربية. وقد التزمت بالنص الذى طالعت، من حديث القرصان الباحثين عن الكنز، يحكى على لسان الغلام جيم هوكينس. فسألنى السلطان ذو الطربوش الأحمر الفاقع، المائل بزاوية منفرجة، والردنجوت الرمادى، سألنى بصوت أجش: «هم مين دول؟» فأدليت إليه بمعلوماتى عن الكابتن جون سلفر رئيس القرصان وجماعته وصراعهم فى سبيل الحصول على الكنز..

لم نكن ندرى بما جرى فى مدرسة الحقوق من سوء استقبال السلطان، وهى الواقعة التى سرد حكايتها تفصيلاً، الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى تأريخه لثورة سنة ١٩١٩. ولو عرفنا لترددنا فى ذكر وقائع

القرصنة، فقد تحمل كل تأويل بحضرة السلطان الذى كان الوطنيون يتهمونه باغتصاب عرش ابن أخيه المعزول.

ماذا كنت أعرف عن السلطان حسين؟ ذهبت غلامًا بالجلابية والصندل إلى ميعدان عابدين لأشهد من بعيد الاحتفال بتوليته عام ١٩١٤، وكل ما أسمع به هو أن الخديو عباس قد عزل، وأن بريطانيا أعلنت الحماية على مصر، وولت عم الخديو المعزول. وقد أذكر لما أننى طالعت إعلان الحماية ملصقًا على الجدران، وسمعنا بأن القصيدة التى يغنيها الشيخ سلامة فى رواية «هاملت»، والتى تبدأ هكذا «عم خئون وأم لا وفاء لها»، قد استبعدت، أو أن الرواية ذاتها سحبت.

كما عرفنا بأن الدولة المحتلة كانت تنوى إقامة أغاخان سلطانًا على مصر، وأذكر أننى قرأت منشورًا لزعيم المسلمين «كذا» أغاخان، يوضح للعالم الإسلامى معنى انضمام دولة الخلافة «تركيا» إلى أعداء بريطانيا ويحل المسلمين من الولاء للدولة العثمانية.

ولا أحسبنى كنت أفقه من المعانى المخفية وراء كل تلك الوقائع أكثر من أن الإنجليز هم أعداؤنا بالأمس، واليوم، وغدًا، وأن انتصار ألمانيا يعنى نهاية الاحتلال البغيض. وما أكثر ما كنت أحلم أحلام اليقظة - التى لم تتحقق إلا بعد ١٨ يونية ١٩٥٦ - باليوم الذى يختفى فيه من بلادنا كل أثر لتلك الأجناد ذات الوجوه الحمراء. أما حكاية

الحماية فلم يكن في استطاعتي التكييف القانوني لها. فالاحتلال هو الاحتلال، بحماية أو بغير حماية. وهذا ما عنيته عندما قلت في فصل سابق بأننا دخلنا المدارس العليا قطعاً عمياء.

ولم نلبث طويلاً بمدرسة الطب حتى تفتحت عيوننا، ووعينا ما حل بنا في آخر المطاف، ومعنى الانتقال من الاحتلال الغاصب، إلى الحماية المضروبة علينا بقوة السلاح. وأحسنا بأنين الجنين في أغنية الصاعيدة بفرق العمال المصريين في صحراء سيناء، وطريق بير سبع «آه يا عزيز عيني - وأنا بدى أروح بلدى! بلدى يا بلدى - وأنا بدى أروح بلدى» وما فيها من «نوستالجيا» إلى ضفاف النيل، وقد انتزعوا منها قسراً. وتكشفت لعيوننا ما كان يعانيه الشعب المصري في الريف والحضر من اعتداءات ومصادرات وخطف للعمال والغلال والجمال، لخدمة ميدان المعركة البريطانية التركية في فلسطين.

وحدثت سنة ١٩١٨ وتوالت أخبار انتصارات الحلفاء على دولتي الوسط، فهدنة ١١ نوفمبر، ثم مؤتمر الصلح بفرساي. وهنا تواترت الأخبار، وتبعته معلومات صحيحة عن أن أهل الرأي من كبار المصريين يجتمعون، ويقابلون المندوب السامي «كذا» يطالبون بسفر وفد مصري إلى مؤتمر الصلح، وأن الوزارة المصرية كانت قد طلبت أن يسافر رئيسها رشدي باشا، ومعه عدلى يكن باشا للتفاوض مع وزير خارجية بريطانيا في إنهاء الحماية وإعلان استقلال مصر.

لم يكن يظهر من هذا شيء في الصحف أو كان يظهر مستتراً بأخبار محلية وإنما هي أخبار كانت تجميعنا نقلاً عن الأفواه أو في وريقات نداولها في المدرجات. ولا أنسى من بينها خطاباً طويلاً، بلغة إنجليزية ممتازة، كتبه شاب مصري، سكرتير المستشار القضائي البريطاني، يبين له أول مرة أسمع وأقرأ فيها اسم وليع مكرم عبيد. وفي مطلع العام التالي ١٩١٩، أصبحت الأخبار أكثر دقة، والتوجيه أوضح، وبدأنا نسمع بأسماء الزعماء، وعلى رأسهم سعد زغلول باشا وكيل الجمعية التشريعية المنتخب، وبأن السلطة البريطانية الحامية رفضت إقامة صوان يخطبون فيه، ورفضت الإنز بالسفر للوزارة، وللزعماء، ومررت علينا أوراق المطالبة باستقلال مصر لنوقع عليها. وهي الوثيقة المشهورة بتفويض الوفد المصري لتولى شئون قضية الاستقلال.

وفجأة، في صباح ٩ مارس تفجرت العاطفة المكبوتة منذ نحو أربعين عاماً، وبخاصة منذ سنوات الحرب الكبرى، إذ جاءنا الخبر بأن سعد زغلول وصحبه قد أخذهم الإنجليز من بيوتهم إلى مكان مجهول. وما إن بدأنا نتدبر فيما نحن فاعلون، إذ هجمت مظاهرة من طلبة المدارس العليا الأخرى «الزراعة والمهندسخانة والحقوق» على مدرستنا، تدعونا للانضمام إليها. فتصدى لها ناظرنا الإنجليزي الدكتور كيتنج، وهجم الطلبة عليه، وأوقعوه أرضاً. وخرجنا حشداً كبيراً صاخباً، واتجهنا

إلى وسط المدينة وإذا فوانيس النور تكسر، وعربات الترام تهشم وتحرق، وما هي إلا أيام حتى نعرف بأن ما حدث في القاهرة تكرر في مدن مصرية أخرى، وأن خطوط السكك الحديدية اقتلعت، والمظاهرات قامت في كل مكان احتجاجاً على اختفاء زعيم الأمة وصحبه. وسمعنا بعد ذلك بأن الوزارة استقالت، وأن لجنة الطلبة العليا قررت الإضراب إلى أجل غير مسمى وأمر هذا ميسر في كل المدارس. إلا مدرسة الطب، إذ إن امتحان الدور الثاني للسنة الأولى طب وصيدلة يجري في مارس بالذات. فاجتمعنا بمكان ما في حي المنيرة ونظمنا أنفسنا لإقامة حصار كامل حول جميع الطرقات المؤدية إلى المدرسة، حتى نمنع من يحاول الوصول إلى لجنة الامتحان ممن لم يبلغهم قرار الإضراب العام. وكان الموضع المحدد لي على رصيف شارع القصر العيني بحذاء المنيرة. وأشهد أنه لم يمر بنا في صباح الامتحان أكثر من طالب أو اثنين، وضعوا مذكراتهم في جيوبهم، وانضموا إلينا دون مناقشة. وكنا نعرف عن يقين أن الأسئلة معدة، والناظر واقف بالمرصاد ليتمكن من يصل إلى اللجنة من أداء الامتحان، وليجري قراره في فصل المتخلفين. ولم يحضر في ذلك اليوم طالب واحد، وألغى امتحان الدور الثاني.

ولا أسطر هنا تاريخ ثورة ١٩، فأمرها مشروح بالتفصيل في أسلوب رصين هادئ بكتاب الأستاذ المؤرخ عبد الرحمن الرافعي. يكفيني أن أستعرض صورة عامة لطريقة قيامنا بالمظاهرات - ولم أشارك من قريب

أو بعيد في أى عمل من أعمال العنف، فذلك لا يوائم طبيعة خاضعة للمثالية الفكرية. كنا نخطر بميعاد ومكان قيام المظاهرة، وغالبًا ما كانت تبدأ عند ميدان الجامع الأزهر، فيخطب الخطباء، وتلقى الأزجال، وتغنى الأناشيد. وفي هذه المظاهرات سمعت أزجال الصديق المرحوم عبد الله شداد يغنيها بصوت جميل، وبألحان من تأليفه، قوية التعبير. كما انتشر في وسط الطلبة التشيد البهيج الطرير الذى ألفه ولحنه ابن دفعتنا بمدرسة الطب، الصديق الدكتور محمود أحمد الحفنى، ويهزج قائلاً: «يا عم حمزة، إحنا التلامذة» الخ.

وفى واحدة أو أكثر من مظاهراتنا - ولا أفهم لماذا اخترنا لها اليوم لفظ المسيرات - أحاط بنا الجند البريطانى، ونصبوا مدافعهم الرشاشة أمام جبهة المظاهرة، وقامت طائرة للاستطلاع فوقنا «من تلك الطائرات التى كانت تشبه أقفاص الفراخ» وسقط قتلى، رأيت من بينهم غلامًا لم يبلغ السنوات العشر. وقيل - ولم أره - بأن طالبًا أزهرياً خطف مدفعًا رشاشًا وجرى به حتى هوى قتيلاً فى «النومانزلاند» بين صفوف الجنود، وطلیعة المظاهرة الواقفة فى مواجهة باب الجامع الأزهر. ولقد صورت يوماً شبيهاً بتلك الأيام فى قصة لى بعنوان «صاحبى ماكفرسون» (فى كتاب: سندباد إلى الغرب).

وأذكر مظاهرة أخرى كنا نشيع فيها جنازة الشهداء، وداهمنا العسكر الإنجليز عند ميدان العتبة الخضراء، فتفرقنا شذرمذرا،

واتجهت إلى شارع محمد على وهناك رأيت ضابطاً مشهوراً بشواربه
السوداء الكثيفة، كان من حراس رئيس الوزراء، وقد استل سيفه وصاح
فيينا شحداً للهمم: قفوا!! الثبات، الثبات!.. ولات من ينادى، فقد
واصلنا العدو والاحتفاء في الحوارى، ونحن نسمع طلقات الرصاص
تختلط بأصوات طرقعة أحدىتنا فوق الأرصفة، وانطلقت شرارة من
حديد كعب واحد يجرى أمامنا.. فحسبناها رصاصة.

ولا أنسى زميلى فى الدراسة، وابن «حتتنا» المرحوم الدكتور أحمد
زكى مطر. وكان يمثل نوعاً من البسالة الهادئة. إذ إنه بالرغم من قدمه
الصناعية التى تمنعه من العدو السريع، لم ينكص أبداً عن الاشتراك
فى المظاهرات. فإذا ما جرينا للاحتفاء ممن يتعقبنا، كانت تتنازعنى
عوامل النجاة بنفسى، وعامل الزمالة والأخوة فأخفف من عدوى حتى لا
أفترق عن صديقى الشجاع.

وسأحكى فى الفصل التالى قصة حصار الإنجليز للأزهر، لمنعنا
من الوصول إليه للاشتراك فى ليالى الوطنية العظيمة. وكيف وقف
زملاؤنا الأزهريون على مقربة من الديدبانات الإنجليز يسرون إلينا
بكلمة «زاوية العميان» وكيف كان يقودنا بعضهم خلال دروب الأربع
القديمة إلى باب خلفى من أبواب الأزهر يعرف بهذا الاسم، لا يدرى
الإنجليز بأمره. وقد تنبه ديدبان إنجليزى نجيب إلى الكلمة وحسبها
تعنى «ممنوع المرور» فكان يرددها لمن يفد عليه منا، بلكنته هكذا «آوت

إليمان» فيتلقانا الدليل الأزهرى إلى الممرات الخفية فى ظلام الليل على ضوء مسرحة من صفيح.

فى ليلة من تلك الليالى التاريخية - حين كان الخطباء من علماء المسلمين ورجال الأكليروس القبطى يتداولون المنصة إنهاضاً للهمم وإيقاداً للشعلة المقدسة - كانت التعليمات قد أُلقيت إلينا بحماير الجبهة الموحدة ضد عوامل التفرقة، يوم نشرت الصحف نداء للزعما يطالبون الأمة بالهدوء والكف عن كل مظاهر العنف. لم تكن نعرف إن كانت تلك خطة سياسية مرسومة أو إنهم صدعوا بأمر عسكري مهمتنا كانت أن نقاوم التهجم على هذا النداء من قبيل رسل حزب يعارض الوفد. وقد احتدم الغزاع بين خطبائنا من طلبة الطب والحقوق وبين طالب بالحقوق أوفد من قبل ذلك الحزب، وكان من أقدر خطبا الثورة بياناً وفصاحة وحماساً. وانفض الاجتماع مبكراً، مما دعا بعض المتحمسين للسهرة الليلية إلى محاولة الاعتداء على جماعتنا، التمر اعتبرت مسئولة عن «فشل الاجتماع» فصرخ فيهم أجهرنا صوتاً. وأقوانا عضلا، وأثبتنا جناناً - الدكتور محمد حلمى الجيار - ونادى بوحدة الزعامة، وبسقوط دعاة الفرقة بالانشقاق. وكان لوقفه الشجاع الفضل فى نجاتنا من الضرب.. بالراكيب.

هذا ما كان من أمر الطلبة الذين التحقوا بالمدارس العليا «قطط عمياء». وقد قضاوا العام كل حسب ما يحسن وما يستطيع القيام دفاعاً

عن مقدرات الوطن، وطلباً للاستقلال التام، ولم يتحقق وشيكاً، أو الموت الزؤام، وقد ظفر بشرف الاستشهاد من بيننا غير قليل.

كان أثر الثورة علينا أشبه بالإعصار، وقد جرفت الموجة العارمة زملاء لنا استقروا في السجون حتى أخرجهم سعد زغلول في أول وزارة رأسها - وكانت الأخيرة - ورحم الله من قضى منهم على أعواد المشانق، أو برصاص الغادرين. وعاد من عاد منا إلى مدارسهم، شباباً أنضجته الثورة، وضمرة المحنة، وفتحت عيونه على آفاق واسعة من المعرفة.

لأن ثورة ١٩، في صميمها غير الواضح، لا في أقوال زعمائها، ولا في هتافات أبنائها، كانت تعنى في ضمير الزمن شيئاً أبعد بكثير من التحرك السياسى، ألا وهو «التحرر الذهنى». وإذا كنا نلتمس المعونة عند دول أوربا ضد إنجلترا، فقد حرصنا على أن نفهم ونعى ما يجرى فى أوربا. وكان هذا أول العهد بنا فى قراءة الصحف الأجنبية - وجريدتى «الطان» و «الديبا» بخاصة - لنعرف ماذا نتحدث به عن ثورتنا، ونتابع أخبار مؤتمر فرساي. وفيها عرفنا لأول مرة ماذا يحدث فى روسيا، وسمعنا بكرينسكى والمنشفيك ولينين وتروتسكى والبلشفيك. ومع أن الصورة التى كانت توصف بها الثورة الروسية فى صحافة الغرب كانت صورة مفزعة فى سعارها، فقد أحسسنا بأن ثمة بركاناً هائلاً تفجر فى إمبراطورية القيصرية، حاولت الدول

المنتصرة إطفاءه بكل الوسائل، فإذا جنود الروس البيض بقيادة دنيكين وكولتشاك وفرانجل، تذوب نوبان الجليد عند مقدم الربيع.

ولم ننقطع منذ ذلك التاريخ البعيد عن متابعة أخبار السياسة العالمية، فالوعى إذا تيقظ لا سبيل إلى إخفاء الحقائق عنه. ولكننا عرفنا مبكرًا مع الأسف، أن بلوغ الحقائق فى المعتك السياسي بعيد المنال، وأن الصحافة ذات مقدرة عجيبة على تلوين الوقائع حسب ميولها السياسية وتوجيه الأحزاب لها. ومنذ اليوم الذى اعترف فيه الرئيس ويلسن الأستاذ الجامعى صاحب المبادئ المشهورة، منذ أن اعترف رئيس الولايات المتحدة بالحماية على مصر، أصبنا بخيبة أمل خرجنا منها بشيء كان له أكبر الأثر فى حياتنا المستقبلية..

هو أن نتحصن دائمًا بقوة من أفعال قوى العقل، وهى الشك، وألا نعتمد فى أمورنا إلا على أنفسنا.

زاوية العميان

- آوت

العميان، آوت اليميان يا لا !

بهذا نطق الصاجن البريطاني، وهو واقف خلف الجازبانند الحربى المؤلف من متراليوزات كلها على «سنجة عشرة» ضمن كوردون حصار الجامع الأزهر لمنع المواطنين من بلوغه حيث يعقدون اجتماعاتهم الليلية التى اشتهرت بها ثورة سنة ١٩.

ويظهر أن الصاجن كان ذكياً مفتح الأذن، فقد لاحظ أن القادمين منا بعد العشاء لاجتماع الأزهر، يرتدون بسرعة عن مواصلة السير إلى «باب المزينين» قبل أن يوقفهم هو، وسمع بعض «الوطنيين» يدلون إلينا بكلمة السر.

- من زاوية العميان، زاوية العميان!

فطن الصاجن إلى أن هؤلاء «الوولاد الجيبو» الواقفين بالقرب من نقطة الحصار يتكلفون عنه بمنع مرور مواطنيهم، ورننت فى أذنه كلمة «فى زاوية ...» كأنها «آوت»، وقارب بين إصطلاح «آوت اف باوندز» و «آوت اليميان»، كأن اللغة العربية فرع من الأنجلوسكسونية.

ولا أنسى أول جندى بريطانى فى الحرب العظمى الأولى، وجه إلى الكلام يسألنى عن الكلمة الفرنسية المكتوبة فوق لوحات محطات

الترام، وهى «أريه»، فيقول لى هل معنى «آريت» بلغتكم هو «ستوب» بلغتنا؟ وصحح الغلام خطأ فارس سان جورج، وأخبره بأن «ستوب» فى لغتنا «محطة». فقال له: «آه، أنتم تكتبونها آريت وتنطقونها ميهاتا!» وهو يظن أننا نكتب لغتنا بحروف لاتينية، ويحسب أننا كالإنجليز إذا كتبوا كلمة «مطاط» مثلا، نطقوا بها «لستك»، وربما «كاوتش»، والله أعلم.

عرفنا - نحن طلبة المدارس العليا، القادمين لحضور اجتماع الأزهر الليلي - أن زملاءنا الأزهريين مكلفون بتوصيلنا إلى داخل جامعهم العظيمة برغم الحصار، ونسير قدماً لنبتعد عن «جازباند» الصاجن، فيتلقانا الزميل الأزهرى ويدلف بنا من شارع إلى حارة إلى زقاق إلى عطفة، وتدخل ربعا، ونفتقل من سطحه إلى خرابة، ومنها إلى حوش، فحارة وكل هذا فى ظلام دامس تضيئه هنا وهناك لبة صفيح بفتيل غاز ثم ننتهى إلى بوابة مقفلة، ندق عليها دقا خفيفا، فتفتح لنا.. وإذا الأزهر حافل، مثل كل ليلة، بعشرة آلاف، بعشرين ألفا قل بأكثر أو بأقل، لا أدرى.. كأن الصاجن ورجاله لا يحاصرون الأزهر.. وإنما يحاصرون هايد بارك فى لوندرة..

يدلف طلبة المدارس العليا: الطب والحقوق، والمهندسخانة والمعلمين العليا والزراعة والتجارة، إلى داخل الأزهر، ليتفرقوا بين صفوف الجالسين حول منصة الخطابة يستمعون إلى خطباء الحفل تلك الليلة: أصحاب الفضيلة والنيافة المرحومين الشيخ الزنكلونى، والشيخ

أبو العيون، والقمص سرجيوس. وكان تقليد الحفل يقضى بأن يبدأ زميل أزهرى بتقديم ضيوف الشرف الواقدين، وهم يجلسون فوق شرفة المبلغ العالية، يراهم الجمع الحاشد. وبينهم قساوسة من السريان الكاثوليك، والروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس بطيالسهم السوداء ذات الحواشى الزرقاء وطرحهم السوداء تنفرج عن أكاليل أسطوانية مختصرة فى وسطها.

وقلبي عند الزميل الأزهرى، وقد كتبت له أسماء الآباء الروحانيين فى ورقة، يطالعها على الضوء الضعيف، والبصر كليل، فيقرأ الإيجومانس حكيم فرفور يوس.. الانجه مانولى فردوسيوس. ويقرأ المونسنيور فغالى.. أبو النور بغالى..

العين بالعين، والسن بالسن. فعندما يقوم نيافة الإيجومانس ليشكر استقبال الأزهر له ولزملائه، يحيى هو أيضاً «شيخكم زنقلاوى.. وشيخكم أبو العينين..» وتخرج أسماء شيوخنا الأجلاء من بين طاقتى أنفه وقد عراها ما قد عراها! ماذا يهزم! إنها الأمة الكريمة على شتى أجناسها ومللها ونحلها، تجتمع فى بيت الله، مصدر الإشعاع الوطنى، بعد أن تكون قد أدت واجبها نهائياً فى مظاهرات لا ينقطع سيرها، احتجاجاً لدى المفوضيات والوكالات، وتشجيعاً لجنازات شهداء الوطنية، وإذا الجنازات، كالمظاهرات، تفرق برصاص المتراليوز من اللوريات البريطانية.

لم تجلس جماعتنا، كما قلت، في مكان واحد، بل تفرقنا كل في قطاع وسط الآلاف المؤلفة المتربعة تنتظر الرأي من قادتها.

ذهبنا تلك الليلة موفدين من قبل قواد الحركة الوطنية لنمنع شرًا مستطيرًا ونوقف خطر تفرق الكلمة والتفاشل. فقد صدر في صباح ذلك اليوم بالذات بلاغ وصفته «الأهرام» بأنه «بيان من عقلاء الأمة» وعليه إمضاءاتهم يرجون البلاد أن تخلد إلى السكينة وأن توقف المظاهرات، وتترك الأمر بين أيديهم يتدبرونه.

ولكن رجال المعارضة أوفدوا خطباءهم ليشتكوا في وطنية البلاغ، وهم أصحاب رأي راسخ في معارضة مبدأ المفاوضة قبل الجلاء.

ولم يكن الطلبة الموفدون من رئاسة الوفد المصري يعرفون شيئاً عما يدور وراء الستار، ويبدو أن قد بدأت مفاوضات في ذلك الحين للإفراج عن سعد باشا - وكان منفيًا في مالطة - والسماح له بالسفر إلى باريس لحضور مؤتمر فرساي.

قام خطيب المعارضين، وكان من طلبة الحقوق، يندد ببلاغ عقلاء الأمة، ويطلب ألا تغمض عين، ولا تقف يد، ولا يخفت صوت حنجرة، قبل أن يعلن الإنجليز عزمهم على الرحيل عن البلاد. وأن يستمر الإضراب، والمشاغبات والاضطرابات حتى يسلم الإنجليز بمبدأ الجلاء العاجل الناجز.

وكان الشاب - رحمه الله - من أبلغ خطباء الثورة، يتدفق بيانًا وسحرًا، في لغة عربية نارية، جعلت الحاضرين يستمطرون

اللعنات على الإنجليز، وعلى «خرقاء الأمة» فتدوى أصواتهم في مثل هزيم الإعصار.

ويقوم طالب آخر من طلبة الحقوق - ومن جماعتنا - وبلاغته من النوع الهادئ الرصين، ليدافع في لباقة بارعة عن «البلاغ للأمة» ويحاول أن يدخل في روع الجماهير أن الوطنية الحققة هي في الاستماع إلى صوت العقل أولاً، ومن ثم إلى بيان «عقلاء الأمة» وفي خلال ذلك يتكلم بخير عن الحزب المعارض، ويثني على زعمائه، وما ضحوا في سبيل الوطن منذ أوائل القرن، وكأنه يرمى من وراء ذلك إلى تشكيك السامعين في أن زميله الخطيب الأول يتكلم باسم ذلك الحزب.

وإذا لم يكن قد نجح تماماً في تهدئة النفوس، فلا أقل من إشاعة القلق في الجماهير، ودفعها إلى ما في إمكانها من تفكير رصين.. إن وجد! وقام طالب آخر من جماعتنا - وكان طالب طب - يخطب في المعنى نفسه، ولكنه يلجأ إلى العنف، كالخطيب المعارض، دون أن تكون له بلاغته، ويستنزل السخط على الإنجليز، وأعوان الإنجليز، فيظن الجمهور أنه سيهاجم بيان عقلاء الأمة، وإذا به يرد على خطيب المعارضة، دون أن يشير إلى حزبه بخير أو بشر. ويحاول أن يثبت في عاطفة جياشة، وأسلوب حماسي، أن الثورات مهما حمى أوارها، فإن من الخطر الدايم أن ينفلت عيارها، وأن نجاح الثورات رهين بوحدة القيادة، والانصياع التام لها.

وهنا يحدث أن يقاطع زميلنا من ناحية الخطيب المعارض، فنقوم - كل فى مكانه من الجمع - لنغطى على صوته. وتترى «تتابع» المقاطعات من هنا وهناك، ويشتد الهرج والمرج، فيتولى شيوخ الأزهر - وكلمتهم مسموعة - تهدئة الخواطر ويختم المرحوم الزنكلونى بخطاب رائع الديباجة، يحدث فيه على وحدة الأمة، ويحذر من التفاضل، ويؤازر الوفد المصرى ويدعو له بالتوفيق والنصر. ويحرص على أن يفهم الجميع بأن خطابه هو نهاية اجتماع الليلة.

ويفض الاجتماع على غير هوى الجماهير، موطدة العزم كل ليلة على السهر إلى ما بعد منتصف الليل تستمع إلى الخطب الرنانة، فكيف يطلب إليها التفرق، والساعة لم تبلغ الحادية عشرة !.

وقد أراد بعض المتهوسين أن يفتكوا بخطيب مدرسة الطب، المسئول فى عرفهم عن فشل الاجتماع.. فحميناه بصياحنا وتهويشنا عليهم.. وحماه زميل لنا عرف بصوت كالرعد، وشدة بأس، وقوة عضل.. بأن رفع ذراعه القوية فوق الرءوس وأنذر من يلمس خطيبنا بأنه مقتول لا محالة بضربة واحدة على أم رأسه لا ثانية لها.

ولا أنكر تمامًا من أى الأبواب خرجنا. كل ما أقطع أننا وقد دلفنا إلى الأزهر من زاوية العميان، خرجنا من باب آخر.

وعندما مررنا بالصاجن «المستشرق».. حرصنا على أن نناديه فى الهزيع الأوسط من الليل:

- أوت اليمين يا جونى !

طبيب العيون، وعيون السمكة

فى

ورقة طائرة بين مذكراتي، قرأت هذه الكلمات مؤرخة يوم الثلاثاء ١٣ مايو ١٩١٩: «من يوم أن عاد الموظفون (إلى أعمالهم، بعد الإضراب العام الكبير) لم نسمع خبراً ساراً. ومن شروط الصلح المقدمة لألمانيا أن تعترف بالحماية البريطانية على مصر. بيد أن الوفد يعمل بهمة واجتهاد حسب ما هو ظاهر».

«مدارسنا أقفلت لأننا لم نرجع إليها بأمر اللبى، والحالة هادئة فى كل القطر ولكن يخرج بعض الناس بعد الساعة العاشرة «مساء» ليتظاهروا فى المدينة وقد سقط عدد من الضحايا».

وتحت تاريخ يوم الاثنين ٢ يونيه من العام نفسه، أطلع: «تركت السياسة واجتمعت بأصدقاء قداماء، اتفقت مشاربى ومشاربهم فى الأدب والموسيقى. الليلة ذهبنا للاستماع إلى قصة الظاهر بيبوس بحى الصاغة يتلوها رجل مليح السمرة، يلبس جلباباً أبيض. إلقاءه طبيعى جذاب يغير لسانه عندما يلقي كلاماً يجيء فى القصة على لسان الإفرنج، فيتكلم بلكنة الجرسونات اليونانيين».

ترجمة كل ذلك أننا منذ يوم ٩ مارس ١٩١٩ فى إضراب واشتغال بالسياسة وواضح أن حياتنا ابتعدت عن الدراسة تماماً، وأننا مهددون بأخطر ما يتهدد الشباب: الفراغ والجدة.

وكان عام السياسة هو أيضًا عام القراءة الأدبية المستفيضة، ودراسة الموسيقى، كما كان حقبة مغامرات عاطفية عنيفة كادت تدمر حياتنا المدرسية، التي لم تنتظم تمامًا إلا في سنة ١٩٢١ حين عادت سيرتها الأولى من التوازن بين التحصيل العلمي الجاد، والاطلاع العام في الفنون والآداب.

ولكن أزمة النمو العقلي والشعوري تركت آثارها في نفوسنا كلومًا وندبات، أشبه مما يبقى فوق وجه الشباب الألماني باديًا، من أثر ضربات السيوف في مبارزاتهم المشهورة.

وإذا كنا قد تأخرنا عن الصفوف الأولى في دراستنا، فقد كسبنا خبرة وتجربة ومعارف أكبر مما يحصله الشبان عادة في مثل سننا. ولعل سر حياتي القلقة ثاو في فترة الجهاد الوطني، والفراغ الذي سمح لي بمتابعة نزواتي الفنية والعاطفية.

ومع أنني أتممت دراستي الطبية في ميغادها (بعد ضياع سنتين)، وحصلت على ميدالية في طب العيون، هي التي قادت خطواتي إلى قسم الرمد، فإن صلتى بالفن والأدب لم تنقطع. وذلك بالرغم من أن التحاقى بذلك القسم فرض على مواصلة الدراسة. فلم يكن في زماننا أقسام تخصص وماجستير ودكتوراه، وقد حرص قسم الرمد بمصلحة الصحة العمومية على تقويم معارفنا علمًا وعملاً، وفرض علينا أداء امتحان عسير يتألف من قسمين، في طب العيون، وإدارة المستشفيات.

بدأت حياتى العملية - على خلاف حياتى المدرسية بالمرحلة
العالية - فى توازن عقلى ووجدانى دام سنتين بالتمام والكمال،
أداء لواجباتى فى المستشفى وإعداداً لامتحانات تخصصى، مع مواصلة
دراسة الموسيقى، والقراءة الأدبية والتاريخية.

العام الأول قضيته بالقاهرة، ما بين مستشفى الرمد بالجيزة،
ومستشفى روض الفرج (وكان خياماً منصوبة). والعام الثانى قضيته بمدينة
طنطا «سنة ١٩٢٥» وكان من أسعد أيام حياتى، بسبب التوازن النفسانى،
ولما خبرته فى أهل طنطا، بل أهل الإقليم كله من كرم طباع وطيب مودة.
ولقد أوفدت فى مأموريات قصيرة بمستشفيات المحلة الكبرى،
والسنطة، ثم بنها، وكان لها أثر عميق جدا فى نفس القاهرى الذى لم
يخرج عن مدينته إلى الريف سوى مرة واحدة فى طفولته - ولبضعة
أيام - ومرة واحدة فى شبابه - يوماً أو بعض يوم - بصحبة محمود
تيمور لزيارة أرض لهم بقويسنا.

عرفت قومى، وغرست حبى للوطن فى إبليز الوادى الخصيب، فأينع
وأزهر وما فتىء يظللنى حتى يحين الحين فأوى تحت ثراه الأقدس.
وهنا موضع قصة أحب سردها على أصدقائى، فى صورة ابن المدينة
المعترف بضآلته، الراضى بمهانته، عقاباً له على جهالته.
لقد رأيت نبات القطن نموذجاً فى قاعات الدرس، ورقاً ولوزاً وهدباً
أبيض ولكنى لم أك رأيت القطن زهراً.. حتى ذلك اليوم البعيد فى

طنطا، عندما ركبت عربة بحصان واحد، إلى جانب عمدة من عمد البلاد المجاورة، دعانا لقضاء يوم بدواره.. سألته في حياء عما يكون ذلك الزهر الأصفر الجميل يزين الحقول على جانبي السكة الزراعية.. أجابني بلهجة هادئة، لا تخلو من رثاء: دا قطن يا دكتور!

وما عتم العمدة حتى تحول إلى طبيعة المصرى الصميم، من كلف بالسخرية. فما برح يسألنى عن كل ما نمر به من أعمدة التليفون، وقضبان السكة الضيقة ومزلقاناتها: دا ايه يا دكتور؟ دى أسلاك التليفون يا عمدة. دا مزلقان يا حضرة العمدة، أجيب وكأنتى الراهب يضرب نفسه بالسياط فى صومعته.

ليتنى عدلت يوم الحسوم ذاك عن رغبتى الملحة فى ركوب الخيل، فما إن جلسنا نستروح نسماط العصارى فى شرفة سلامك الدار، أمام ساحة البلدة، حتى جىء إلسى بجواد عربى أصيل، لا داعى لتلمس المعذرة فى نقد طريقة سرجه ولجامه فلن يغير هذا من عنوان ذلك اليوم فى لوح القدر يوم الذلة والهوان.

ما إن دار الفرس دورته حتى أدرك وزن ابن المدينة. ولعل العمدة قد أسر إلى جواده بأننى «الهايف» الذى لم يتعرف على زهرة القطن! فطرحنى الجواد الكريم عن ظهره، أو كما علمنا أساتذة الإنشاء العربى: نبذنى نبذ النواة. ونهضت من سقطتى لأتلقى تهنئة العمدة على سلامتى، ولأسمع بأذنى قوله: معالهنش يا دكتور ولا كل من ركب الحصان خيال.

كانت حياتى مستقرة هائلة، ومستقبلى مورقاً مزدهراً.. كذلك الأزهار الذهبية البالغة التى لم أعرف اسمها.

ولكنه القلق المستحوذ على كيانى، المتربص بى، ولكنه قلق الركود والرتابة وآثار الرومانتيكية الحادة التى لم أك شفيت منها تماماً، هى التى قررت مصيرى عندما سولت لى نفسى استحالة ممارستى للمهنة النبيلة حتى آخر عمرى وأن المقلّة وحدها لا يمكن أن تحتوى رغباتى ونزعاتى.

وكان قراراً خطيراً ذلك الذى اتخذته بينى وبين نفسى، ونفذته ضد نصيحة أصدقائى وزملائى ورؤسائى.. وهو هجر عيون البشر إلى دراسة شىء هائل عجيب، مجهول لى تماماً فى غير ما رأيت من سطحه، وما قرأت عنه من أساطير. ألا وهو البحر.

ولا تفسير عندى لهذا القرار أكثر من الرغبة العارمة فى العلم والمعرفة، والتشوق الشديد إلى ورود ينابيع الحضارة الأوربية التى نشأت كلفاً بها، معجباً بالقليل الذى رأيتُه وعرفته وسمعتُه من آثارها. ولقد أدرك رؤسائى تلك الرغبة فأكدوا لى أن سيجىء دورى فى البعثة إلى مستشفى مورفيلدز بلوندره، ولكنهم لم يدركوا طبيعتى القلقة، ورغبتى فى التغيير.

ثم ما هى سنة أو سنتان أقضيهما فى مستشفى متخصص بلوندره، إذا ما قارنت ذلك بسنوات أقضيها ما بين باريس وتولوز وعلى شطآن

بحر الشمال، والبلطيق والأطلنطي، والأبيض، ناهيك بما تخيلته من ركوب بحار الدنيا، واتصالي بأهل البحر الذين قرأت عنهم في رحلات السندباد وفي عجائب الهند، بره وبحره وجزائره، لبزرك بن شهريار الناخوداه!

ولا أنسى، وقد تقرر أن أسافر بالبعثة العلمية إلى فرنسا لدراسة الأحياء المائية، وكتمت الخبر إلا عن صديقي ورئيسي المرحوم الدكتور محمد بكري، ونحن نعبّر ترعة الجعفرية فوق القنطرة الموصلة إلى مستشفى الرمذ الأميري، إذ تقدم شاب من طلبة المعهد الديني، وحياني بأدب بالغ، وقدم قصيدة مديح من تأليفه مهداة إلى بمناسبة عملية أجريتها له، أو كشف نظارة، لا أدري..

سرت والمرحوم محمد بكري في طريقنا إلى المستشفى نتبادل الابتسام وأتساءل ماذا يقول هذا الطالب الأزهرى لو عرف بأني تاركك، وتارك تخصصنا، من أجل عيون البحر الزرقاء؟
أجابني بكري ابن النكتة الساخرة: ما أظنه إلا أن يقول: خسنت يا خفون أتطوي كشحك للعيون التي في طرفها حور.. من أجل عين السمكة؟

البعثات. وما أدراك ما البعثات

قبل أن أستاذن القارئ في التوقف عند ختام سنة ١٩٢٥، أحب أن أتحدث عن معنى السفر بالبعثة التعليمية، لما لهذا الموضوع من خطر لم ينقص، بل زاد بحكم التطور الكبير الذي تمر به بلادنا، وبازدياد الحاجة إلى إيفاد الشباب لإتمام تعليمه وتثقيفه خارج الديار.

لقد مرت البعثات منذ النصف الأول من القرن الماضي بأدوار من النظم، بدأت بنظام البيت الواحد «الأنفندية» يشرف عليهم مدير للبعثة من أهل البلد الموفدين إليه، وتؤمهم شخصية دينية كان من حظ هذه البلاد أن يتولاها الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى.

وفي العشرينات الأولى من القرن الحالى وبعد افتتاح التمثيل الخارجى لمصر، انتقلت وظيفة الإمام إلى المفوضيات وعين لإدارة البعثات مصريون، وإن ظل مدير البعثة التعليمية فى لوندرة بريطانيا حتى آخر الثلاثينات. وتحددت الرقابة على أعضاء البعثات بحدود الإشراف المالى والإدارى والعلمى فحسب. ولا أعرف عن النظام المتبع حالا سوى أنه يشبه فى كثير ما كان متبعاً أيام بعثتى. والجديد فيه - بقدر علمى - هو حظر الزواج بالأجنبيات.

ونجاح الطالب فى بعثته أو عدم نجاحه ، وحسن سيره أو سوء سلوكه «فيما ندر» أمورها مرهونة بظروف الطالب نفسه ، لا أحسب المشرفين عليه يستطيعون فيها أكثر من التوجيه والنصح ، فاتخاذ الإجراءات الإدارية المرسومة.

ويمكن القول بصفة عامة أن نظام البعثات نجح تمامًا ، وكفل للبلاد مجموعة ممتازة من رجال العلم والأدب والاقتصاد والقانون والطب والهندسة والتكنولوجيا إلخ. وبفضلهم استطاعت مصر أن تبلغ ما بلغته اليوم من كفاية القائمين على شئونها التكنوقراطية ، ومن أداء الخدمات الجلى للبلاد العربية ، وبعض البلاد الإفريقية.

وقد سألت الأستاذ أرنولد توينبى فى الندوة التى نظمها السيد صلاح دسوقى محافظ القاهرة السابق بين المؤرخ الكبير وبين عدد من قادة الفكر فى الجمهورية (راجع مجلة «الكاتب» عدد أبريل ١٩٦٥) «قلت فى محاضرتك الأخيرة إن التطورات فى البلدان العربية متباينة، وإنك تقدر مدى تقدم مصر على البلدان العربية بمائة وخمسين عامًا، هلا شرحت لنا على أى أساس تقيم هذا التقدم؟ هل هو أساس تكنولوجى، أم فكرى، أم علمى؟»

أجاب البروفسور توينبى: «إن مصر من أحد الوجوه متقدمة بأربعة آلاف عام، هذا إذا وضعت التاريخ المصرى فى الاعتبار. وأعتقد أن الماضى المتراكم من التاريخ المصرى القديم والإغريقى ، والرومانى والمسيحى

والإسلامى - أعتقد أن هذا الماضى عظيم جدا، ولقد دخل كله فى حياة شعب مصر. ولكنى حينما قلت ذلك فإنما كنت فى الواقع أفكر من زاوية إدخال الأساليب العصرية، والثقافة الفرنسية، ومن زاوية أن المصريين هم أول طلبة من العالم العربى يذهبون إلى أوروبا. وأعتقد إذا لم أكن مخطئاً أن محمد على هو الذى أرسل الطلبة إلى فرنسا حوالى ١٨٢٠م. وسر نجاح البعثات العلمية هو - أساساً - الدقة المتناهية فى الاختيار، وتطبيق قواعد علمية تطبيقاً عادلاً، لا محسوبية فيه. ولقد اشتركت بجامعة الإسكندرية فى لجانها لاختيار بعثاتها، بعد نهاية الحرب العالمية مباشرة. وتصويرى لأعمالنا فى تلك اللجان هو أننا كنا «نزن المرشحين بميزان الذهب» سواء فى اللجان، أو فى مجلس الجامعة.

ولن أجد لنظام البعثات عندنا فى الماضى والحاضر «باستثناء فترة سوداء إبان الاحتلال البريطانى» إلا كلمات الثناء أزجيتها لكل من قام ويقوم على شئون البعثات. فالإحساس بالتبعة التاريخية حيال البلاد واضح فى الماضى والحاضر على السواء.

ولكن ما لم يستطعه أولئك وهؤلاء، ولعلهم لم يحاولوا حتى التفكير فيه هو موضوعى اليوم:

إننى لا أعرف فى العلوم والآداب والفنون فى العصر الحديث كتلة شرقية أو غربية، وفيما يتصل بأثر البعثات على الحياة المصرية لا أريد

أن أعترف بثقافة لاتينية أو سكسونية أو سلافية إلا فى بعض صورها الظاهرية. وضيق العقل وحده هو الذى يقيم موازنة بين تلك الثقافات، فى دنيا العلم والمعرفة والفن والأدب لا أعرف إلا عالماً واحداً، هو عالم «الحضارة الحية». وهذا هو المعنى الذى أعربت عنه فى سؤال ثان وجهته إلى المؤرخ الكبير أرنولد توينبى فى الندوة المشار إليها.

قوزى: فيما يتعلق بموضوع البلدان المتخلفة، أو النامية، أو كاملة النمو، يبدو لى أن هذا يتحدد فى الغالب على أساس اقتصادى أو صناعى، أو تكنولوجى. فهل لى أن أسأل البروفسور توينبى عن أساس حضارى لتصنيف البلدان: ماذ يمكن أن يكون هذا الأساس فى رأيك؟ متى تصف بلداً بأنه متقدم، أو آخذ فى النمو، من وجهة النظر الفكرية أو الحضارية؟

توينبى: «... فلنأخذ بلداً آخر فقيراً جداً بمعدل الفرد، إيسلندة: مواردها ضئيلة جداً، فهى بلاد جرداء، والناس يعيشون هناك على صيد البحر، وبناء بعض السفن، وهم يبيعون سمكهم المجفف لإفريقيا الغربية. ومع هذا فهم متحضرون جداً، ومعظم صيادى إيسلندة يستطيعون أن يتناقشوا مناقشات طريفة حول بعض المسائل الأدبية. حينما كنت هناك سمعت قصة سفير النرويج الذى كانت له اهتمامات بنوع من الأدب الأيسلندى يسمى «الزارجا» وصدرت هناك طبعة جديدة من هذا الكتاب، وتردد السفير فى شرائه بسبب ارتفاع ثمنه، وأثر

أن يعود في وقت آخر. ودخل في تلك الآونة صياد يسأل عن الكتاب، ويخرج نقوده على الفور ليقتنيه. وشعر السفير بالخجل، وعاد بعد أسبوع مصمماً على شراء نسخة، وإذا الطبعة قد نفذت! هذا بلد فقير اقتصادياً، ولكنه يتسنى القمة من الناحية الحضارية. وفنلندة مثل آخر: كل إنسان هناك يقرأ ويقتنى الكتب، ولا ينفق نقوده على التفاهات». وهنا سألته عن بلد قريب جداً منا، مقرب إلى قلوبنا، اليونان، هل هو متخلف، أو نام، أو متقدم؟

توينبى: «أضعه في نفس الموضع الذي وضعت فيه فنلندة وإيسلندة: إن اليونان قوم ممتازون».

وعلقت على إجابته بقولي: «إنني حينما أريد أن أحكم على بلد، أسأل عن عاصمتها، إن كانت فيها دار للأوبرا، وجامعة. وهل لديهم قاعات للموسيقى وأوركسترا سمفونى، وكيف تعمل مجلاتهم، وماذا يحقق مثقفوهم في العالم، هل لديهم روائيون ممتازون، وما حال المسرح عندهم؟ وما إلى ذلك، أعنى لو أن الأمم المتحدة أقامت أساساً من الحضارة الروحية، وليس مجرد أساس من الآلة، كما تفعل اليوم، لكان هذا أفضل: لأن الدول النامية حينذاك ستفكر فى الوصول إلى تفوق حضارى، أكثر مما تفكر فى إقامة الآلات والصناعات».

لقد ذهبت إلى أوروبا لأدرس علماً من العلوم، وتطبيق ذلك العلم فى تنمية الثروة القومية، وقضيت شطراً هاماً من عمري أودى واجبى

فى هذه الناحية، ولكننى كنت مدركاً تمام الإدراك بأن وراء مهمتى العلمية والتطبيقية شيئاً يفوقها: وهو دراسة الحضارة حتى أغوص إلى أعمق أعماقها. وفى كتاب «سندباد إلى الغرب» فصول تصور بعض وجوه تلك الحضارة.

وأثناء بعثتى كنت أود لو تدخلت إدارة البعثات فى توجيهنا إلى الناحية الحضارية، كأن تجمعنا فى ندوات عن معنى الحضارة نتبادل فيها الخبرات والانفعالات التى تثيرها حياتنا وسط المجتمع الأوروبى. ويمكن أن أقسم المجموعة الممتازة من المبعوثين الذين عرفتهم أثناء إقامتى فى أوربا إلى فريقين: فريق نبغ فى تخصصه وتعجل الحصول على دبلوماته وعاد «على الطائر الميمون» إلى بلاده. ويغلب على ظنى أن التكنوقراطيين الكبار فى مجتمعنا اليوم ينضوون فى هذا الفريق. وما عليهم فيما فعلوا من حرج، بل الخبر فيما أتوا.

والفريق الآخر أضاف إلى تخصصه تفقهاً بمعانى الحضارة، فطالع الأدب، وارتاد المتاحف والمسارح الجادة وقاعات الموسيقى الرفيعة، والمحاضرات العامة وربما أطالت تلك الاهتمامات، لسبب أو لآخر، سنوات دراسته. ولكن ما من شك عندى فى أن هذا الفريق هو الذى يجب أن تعتمد عليه البلاد فى تطويرها الحضارى.

ولقد لاحظ المتأزون من زملائى فى البعثة أن أساتذتهم الكبار، ذوى الأسماء الرنانة فى تخصصهم، واسعوا الإطلاع على مقومات الحضارة،

بل يسلك بعضهم فى الحركات الفنية والفكرية. وعندما اشتركت فى جمعية موسيقية للهواة بمدينة تولوز «جمعية شارل بورده» لاحظت أن من أعضائها بعض شخصيات المدينة، من رجال العلم أو الإدارة أو الطب أو الهندسة. وكان يجلس فى أوركسترا الجمعية، على قيد خطوات منى، ويعزف على الفيولا، أستاذى المساعد فى علم النبات. وما زلت أطلع اسمه بين علماء الإيكولوجيا النباتية الكبار.

وعندما توجهت إلى ميونيخ سنة ١٩٢٩ للقيام بدراسة تخصص فى جامعتها، لم يتردد واحد من أساتذتها - أظنه كان مشتركاً فى الحركة النازية - فى أن ينظر إلى منى على «كواحد من أبناء تلك الشعوب المتخلفة» ولم يشفع لى عنده أننى تتلمذت على علماء كبار فى السوربون وجامعة تولوز، إذ كان من الواضح أن ذلك النازى غير حفى بالفرنسيين، فلم يخف على استهتاره بعلمائهم.

ثم حدث أن التقيت به فى حفل موسيقى خاص بالرباعيات الوترية، وإذا بالرجل يعدل موقفه منى، فيناقشنى صباح اليوم التالى فيما سمعنا من موسيقى، ويعجب إذ يعرف بأنى أمارس ذلك الفن، ومشارك فى أوركسترا السوربون. وقد أقبل بعد ذلك على، وأعاننى بكل ما وسع على أداء المهمة العلمية التى أوفدت إليه بها، ثم دعانى إلى منزله، وقدمنى لأسرته.

لقد ذكرت هذه الواقعة لأن فيها انتقالاً فجائياً من عدم الاكتراث إلى الاحتراف. والحقيقة أن سر نجاحى فى المجتمعات الأوربية لم يكن

مرجعه تفوقى فى علم من العلوم، بل لأن من اتصلت بهم كانوا يحسون منى وعياً لحضارتهم، فلا يجدون خيراً من أن يقابلوا ذلك بالتحدث عن مجد بلادى القديم وثقتهم بأنها تتبوا عاجلاً مكانتها اللائقة بتاريخها.

كم أود أن تعنى وزارة التعليم العالى بتوجيه أعضاء بعثاتها العلمية إلى إدراك معنى الحضارة التى يعيشون بين أهلها من الكتلة الشرقية أو الغربية. ولا أعنى بالطبع الحضارة فى مظاهرها المادية، أو فى المعاملات الاجتماعية من طعام أو ملابس أو مرقص، وإنما أقصد الحضارة بمعناها الروحى والثقافى العميق.

وأعجب ما لفت نظرى أخيراً أن يشجع المبعوثون إلى بلاد إفريقيا على تأليف الكتب عن البلاد التى يعيشون فيها زماناً، فائدة هذا واضحة، فهى تؤدى إلى تعريفنا بإخواننا البعيدين، أولاد قارتنا. إنما مصدر عجبى أن لم تفكر يوماً فى الأربعين سنة الماضية بأن نشجع أعضاء البعثات إلى أوروبا على التقدم بدراسات عن أصول الحضارة التى نعموا بخيراتها العقلية والوجدانية.

وهل صنع شيخنا رفاعه رافع الطهطاوى غير هذا عندما كتب رسالته «تخليص الابريز، فى تلخيص باريز»؟
وإذا شئت أن تعرف رأى فى رفاعه الطهطاوى، فإليك ما جاء عنه فى كتاب «سندباد مصرى»:

«وعاد رفاعة إلى وطنه سنة ١٨٣١ زأخر النفس بمعانى حياة جديدة، متحفزاً لإصلاح المجتمع المصرى. عاد ليدرس وينشئ المدارس. ويصنع من تلاميذه رواداً للجيل الصاعد.. مضى يكتب، ويخطب وينشر المجلدات والصحف، يبسط العلوم، ويعالج شئون التربية والسياسة والاقتصاد، يحاول هدم الآراء الفاسدة ويبذر بذور التقدم. يبصر أمة بروعة ماضيها، وخصب حاضرها، ورجاء مستقبلها. لا يكل فى ذلك نشاطه، ولا تتنيه عنه الحدود والقيود، ولا نفى عباس باشا له إلى السودان.. لولاه ولولا الفريق الذى رباه، لظلت مصر متخلفة عن حضارة الغرب نصف قرن آخر على الأقل».

obeykandl.com

إنما الدنيا مسرح كبير

قوة تستنفد، والقدرة على قيادة التاريخ ليست من الخصائص
الأبدية. فأوروبا التي ورثت القيادة عن آسيا منذ ثلاثة آلاف
سنة قد لا تحتفظ بها دائماً.

المؤرخ إرنست لافيس في سنة ١٨٩٠

توقفت في سرد ذكريات الماضي عند التحول الأول في مسار الحياة،
حينما تركت الطب إلى العلوم، ثم اتضح لي بعد تأمل طويل أن الأسباب
التي تلمستها للتوقف عن سرد ذكرياتي كانت أعمق مما تصورت، فقد
وقفت عند اختياري عضواً بالبعثة لدراسة الأحياء المائية وعلوم البحار.
ويبدو أن فترة الغربية والتحصيل في أوروبا - وقد طالت إلى خمس
سنوات - فرضت على - قبل أن أقدم على استعادة ذكرياتها - أن أعنى
بتحليل عام للحياة الغربية، ومحاولة فهم أوروبا لا كما كانت تتمثل لي
نتيجة لتربيتي ودراستي في مصر بل في حقيقتها التاريخية. ولعل
هذا يفسر اتجاهي في الأشهر الماضية نحو مطالعات في تاريخ القرنين
التاسع عشر والعشرين.

فلم أكن أعرف - ولا يمكن لإنسان في وقتها أن يدرك - أن فترة
إقامتي بأوروبا من ١٩٢٥ حتى ١٩٣١ لها حساب في التطور التاريخي
الحديث. فهي فترة الرخاء المضطرب، و«السنين المجنونة» (تسمية

الفرنسيين لها) بعد الحرب العالمية الأولى، وقبل الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي بدأت يوم «الجمعة السوداء» في وول ستريت، واجتاحت العالم كله في أوائل الثلاثينات.

ومع أنى تتبعت أحداث العالم حولى، فقد كنت غير مدرب الحاسة التاريخية بحيث أعى خلال الحوادث الجارية علاقتها بمجرى التاريخ العام، لاسيما وأن قراءتى التاريخ اقتصرت على حقبات حضارية معينة، أهمها حضارتى المصرية والعربية وحضارة اليونان فى عصرها الذهبى، ثم تاريخ عصر النهضة فتاريخ الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت حتى أفول نجمه فى واترلو (١٨١٥)، وحتى وفاته حبيباً فى سانت هيلانة.

ومعنى ذلك أننى لم أكن تعمقت فى دراسة العصر الأحدث والأقرب إلينا. ولعل هذا يفسر انصرافى منذ بعض الوقت إلى مطالعات تاريخية عن القرن الماضى والحاضر.

أدركت مثلاً هذه الحقيقة البسيطة جداً، وهى أن وقوع مصر فريسة للإمبريالية كان أمره محتوماً لا مناص منه، حتى بفرض أن لم يتول إمارة البلاد تلك الشخصيات المسخ المهلهلة التى تحمل أسماء عباس الأول وسعيد وإسماعيل وتوفيق، وحتى لو لم تحدث هوجة عرابى. فقد كنا، وكل الشعوب غير الأوروبية. نمثل أمام أوربا قصة الحمل والذئب، مأكولين مأكولين.

وعرفت مثلاً أن حركاتنا القومية لمقاومة الاستعمار لم تكن لتؤدي إلى زحزحة الغاصب، عندما كان الغاصب غولاً «يفطر بنصف قطر، ويتغدى بقطرين ويتعشى بنصف قارة» ولكنها كانت الشعلة المتقدة في أغوار النفوس الأبية، لا تطفئها البصقة التي قيل بأن السير ريجنالد ونجت قل أدبه وأشار إليها قبل ثورة ١٩١٩.

وما أصدق كلمة لغاندى انطباقاً على حالنا في تلك الأيام الخوالي، بل ما أقربها إلى ما كنا نقوله في غمار حماسنا الوطني:

«إن البريطانيين يريدوننا أن نضع جهادنا على مستوى المدفع الرشاش، فهم يملكون السلاح ونحن شعب أعزل. وليس ثمة ما يؤكد انتصارنا عليهم إلا أن نبقى على مستوانا نحن، وأن نحارب بأسلحة لنا لا يملكها غاصبونا».

ولقد شرحت في مكان آخر (سندباد مصري) وبالإفاضة اللازمة، صراع القومية المصرية ضد الغاصب الروماني والبيزنطي، وأن ذلك الصراع إن دل على شيء، فإنما يدل على أن مصر كانت من أقدم الشعوب وعياً وممارسة للمقاومة السلبية.

كان غاندى البرهمي العظيم عميق الاطلاع على كتب الحكمة الهندوكية (كالأوبانيشاد والباچافاد - جيتا). ولعل فقرة من «أوبانيشاد الشهنديجيا» تفسر لنا المعنى الروحي الذي كان غاندى يعمل بوحيه:

«الإنسان مخلوق إرادي، حياته في الآخرة تنبع من إرادته في الدنيا. فلتكن إذن عقيدته وإرادته هي أن الإنسان الذكي، ذا الكيان الروحي، والتكوين النوراني، الصادق الفكر، الأثيري الطبع، من يفوح العنبر الزكي من نفسه، وينبع النوق الجميل، والأعمال الصالحة، الإنسان الذي تنضوي جوانحه على كل ذاك، دون شقشقة لسان، أو عجب وخيلاء، هو "أنا في قلبه"، إنه الروح السامي - أي البراهمان».

فلنتمعن قليلا فيما يحدثنا به تاريخ أوروبا في خواتيم مائة انعام التي انتهت عند سنة ١٩١٤ :

كانت أوروبا على حد قول اللورد كينس تعيش حقبة فوق العادة من التقدم الاقتصادي للإنسان، كانت ذروة العالم الرأسمالي الليبرالي. وقد رسم العلامة الاقتصادي الكبير صورة صادقة لأوروبا في رخاء أممها وثرأ أفرادها، وبلهنية العيش بها، والإحساس العام بالطمأنينة. وكانت الدنيا كلها تقدم لأوروبا السلع التي لا تخرجها أرضها، والمنتجات الاستوائية النادرة التي لم تعرفها أوروبا إلا مؤخرا، والتي تمثل غاية الترف. بينما تتلقى بلاد الدنيا من «المصنع الأوربي» سلعا كانت أوروبا وحدها هي التي تستطيع إنتاجها بكميات وفيرة. وكان العالم مفتوح الأبواب والمسالك، أزيلت منه الحواجز إلا القليل، والناس والسلع ورءوس الأموال والأفكار تنقل حرة في كل مكان.

ولاحظ أن تلك الدنيا، أو ذلك «الايلدورادو» الذي يصفه كينس لم يكن العالم في شموله، ولا حتى أوروبا بأكملها، بل كان بعض أوروبا «البعض

المسيطر، أي مجموعة البلاد الأوروبية القائمة في غربي القارة ووسطها، وهي التي تضم «بؤرات الحضارة الغربية». وحتى الدول الجديدة، كالولايات المتحدة واليابان، التي تشارك في استغلال موارد العالم، كانت بنت أوروبا، تقلدها وتستألف وسائلها ومثلها وطرائق معيشتها. كانت سيطرة الرجل الأبيض - أو بعض الشعوب البيضاء - تبدو كأن الشعوب المغلوبة على أمرها تستمرئ هيمنتها صاغرة، وكانت وحدة شعوب الأرض تبدو كأنها قد تحققت، ونظمها السياسية تظهر كالطود الشامخ متين البنيان.

ولم تمض أربعون سنة على عام ١٩١٤ حتى تغير الموقف كلياً، وكأنه ديكور مسرحي يبدله ويغيره الماكينست المتجلى في صورة حربين عالميتين، وأزمة اقتصادية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً في شعولها العالم بأسره.

حرب ١٤ كانت حرباً أهلية داخل أوروبا، دامت أربع سنوات. هزت ثورة روسيا سنة ١٩١٧ العالم الرأسمالي الكبير هزة لم يعد بعدها إلى سابق عهده، بل لم يعد في المستطاع إرجاع الحياة سيرتها الأولى واطمئنانها وأمنها ورخاؤها.

قبل أن يكمل القدر (أو حتمية التاريخ) ضرباته على أم رأس أوروبا في صورة الأزمة الاقتصادية عام ١٩٢٩، فالحرب العالمية الثانية، كان تدهور أوروبا واضحاً لكل من يدقق البصر، أو يكشف بالبصيرة.

فإن النظام الرأسمالي كله، ذلك البناء المشمخر، أخذ يتصدع منذ اليوم البعيد في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٢٩ المعروف في دوائر المال بنيو يورك باسم «الجمعة السوداء».

فما عرفت أوروبا، ولا العالم، منذ ذلك الوقت هدوءاً ولا راحة. فقد تلاشت الثقة بالمستقبل والطمأنينة. إلى الحاضر، وترنح النظام الليبرالي تحت ضربات النظم الشمولية في روسيا السوفياتية وإيطاليا الفاشستية، وألمانيا النازية، وكلها تصفع وتركل وتدوس على مبادئ الحرية، روح الحضارة الأوروبية منذ نهاية القرن الثامن عشر. ودارت رحى الحرب العالمية الثانية - ولما تزل آثار الأزمة الاقتصادية الكبرى - «فشلفطت» الفاشستية والنازية وأذنا بها، بل محتها من وجه الأرض، لكنها آبت «رجعت» بنتائج غير منظورة ولا متصورة. فإن كانت الحرب قد بدأت بين أمبرياليين طماعين نهايين يتناحرون على ملكية العالم، فقد ختمت على أم رأسهم جميعاً وتخلصت من برائتهم أكثر الشعوب المغلوبة في إفريقيا وآسيا. وحتى شعوب أميركا اللاتينية لم تعد تقبل سيطرة الدولار بروح الاستسلام القديم.

ثورة عالمية لم يتغير بها وجه السياسة والاقتصاد وحدهما، بل وجه الفكر والعلم والفن أيضاً. فالفيزياء التقليدية انزوت في متحف العاديات، والقوبرنطيقا (الإليكترونيات وشبكة الأعصاب في الحيوان

إلخ) وما إليها من اكتشافات وإنجازات قوضت أساس الفكر الفلسفي.
والفنانون والكتاب صرفوا النظر عن تساؤل العبسي القديم «هل
غادر الشعراء من متردم»، لأنهم استغنوا عن ذلك القديم يقلدونه أو
يبنون فوقه - وإن حرصوا عليه - وراحوا ينهجون ويقتحمون مسالك
جديدة عبدها للقصة والتمثيلية والقصيدة والصورة والمصنف الموسيقي
والتمثال. فلم تعد الوسائل القديمة تفلح في التعبير عن العالم الحديث
القلق، ولا هي بمستطاعة أن تمثل علاقة الإنسان بنفسه، وبغيره،
وبالعالم حوله.

أكتب هذا وأمامي، تحت لوحة المكتب الشفافة، إعلان ملون صغير
عُثرت عليه داخل كتاب قديم، تدعو فيه شركة سكة حديد باريس
- ليون - البحر الأبيض المتوسط (ب. ل. م) إلى كرنفال نيس وإلى
تيسرو الحمام بمونت كارلو، وإلى زيارة نيس وموناكو ومنطون...
تذكرة زهاباً وإياباً مداها عشرون يوماً، إبان شتاء ١٩١٤، ويمكن مداها
لفترتين كل منهما عشرة أيام (لاحظ مدى تلك الإجازة الشتوية التي
لا يقدر عليها اليوم سوى قلة من حفريات العصر الرأسمالي!).

والصورة على رأس الإعلان من أصدق ما يمثل حقبة الرخاء والهناء:
أربع سيدات جميلات، بقبعاتهن واسعة الأطراف، طويلة الريش،
وفساتينهن الحشمة لا تكشف إلا عن أقدامهن الصغيرة في أحذية
كحوافر الغزلان، وفتحات مثلثة بين الكتفين والنحر. أربع سيدات

فى ألوان هادئة يهرعن فوق بساط سندسى إلى لقاء الفسىم الحالم يلصق
أثوابهن بأجسامهن ولكن فى منتهى الحشمة والوقار، وخلفهن نخيل
تتمايل أعطافه، وتهتز أغصانه تحت لمسة الشمال «رىح الشمال» فوق
الرىففىرا.

ما أكثر ما أقارن بىن هذه الصورة الساحرة فى سذاجتها وحشمتها،
وبىن الإعلانات الحديثة، أو المقالات المصورة التى تنشرها مجلة
«لاىف» فى سلسلاتها السىاحىة... ذلك كان عالم الاسترواح والهدوء
والأمن، جنات عدن فوق الأرض، فى مقابل جمال زائف حتى فى عربيه
وفحشه وتوالىت وأصباغ تحاول كلها - بون جدوى - أن تخفى القلق
والفزع، والأعصاب المنهكة بالسهر والىنحلال.

أولئك البىيدات المحتشبات كىن يعملن لىدنىاهن كأنهن يعشن أبداً..
أما الغوانى البعارىيات، فتمثلهن على غلاف «لاىف» مانكان رشىقة،
تهوى من يخت إلى مىاه البحر الأبيض الزرقاء... وكأنها فى طرىقها
إلى جهنم الحمراء. لأنها تعىش لىدنىاها وكأنها... بل لأنها قد تموت
غداً.

ألم تذكرنا الصحافة الأورىبىة فى هذه الأيام بمرور عشرين عاماً على
قنبلة هىروشىما التى قضت على مائة ألف من البشر فى ومضة عىن؟

طالب بالبعثة التعليمية

اكتشفت

عَرَضاً وأنا أبتعد للسفر إلى أوروبا أن بعثتى كان مقرراً لها الدراسة بجامعة كامبردج، ثم تحولت إلى جامعة تولوز، حيث يوجد معهد متخصص لدراسة الهيدروبيولوجيا (وتعنى تقنياً: بيولوجيا الماء العذب) وتربية الأسماك. واستطعت بعد وصولى إلى مكتب البعثات فى باريس، بطريق الإقناع والبيينة أن أعدل برنامج بعثتى، على أساس أن أبدأ بدراسة التاريخ الطبيعى (الحيوان والنبات والجيولوجيا) والفسولوجيا العامة والبيولوجيا، لإمكان التوسع فيما بعد لدراسة شئون الحياة المائية فى البحار والبحيرات والأنهار. واقتنعت البعثة بأن أسجل اسمى فى كلية العلوم بجامعة باريس، وأن أحضر الدراسات الحرة بالمعهد الإقيانوغرافى القائم على مقربة من السوربون.

وإذا كنت هنا أخدع نفسى، فمن غير اللائق أن أكذب على القارئ. لأن قرارى البقاء فى باريس - وإن دافعت عنه أمام البعثة بالأسباب المشار إليها - انتهت إليه بعد أول زيارة لقاعات الصور بمتحف اللوفر.

وإنا كانت حياتى كطبيب بمصر قد بدأت مزدوجة، يتنازعها الشغف بالمعرفة وعشق الفن، فقد أوقعت زيارتى لقصر اللوفر «الفاى فى الراس»، ولذلك رتبت أمرى على مواجهة حقيقة مفزعة، وهى أن حياتى ستكون أشبه بحياة ابن يتنازعه والداه بعد انفصالهما انفصالاً نهائياً. والوالدان فى هذه الصورة الكلامية هما: العلم والفن، أو العلم والمعرفة والأدب والفنون، إذا أردنا أن نكون أكثر تفصيلاً.

وزيارة اللوفر هى أيضاً بحاجة إلى شىء من التفصيل. فقد وصلت إلى باريس فى شهر نوفمبر ١٩٢٥، وعقام الشتاء مخيم على مدينة النور أو «المدينة - النور» كما يسميها أهلها. والنهار يقصر، فلا تنعم بضوئه الخافت إلا بعد التاسعة صباحاً، وقبل الخامسة مساءً. ولا أذكر أنى رأيت الشمس الطالعة بعد ذلك حتى شهر مارس.

دلفت إلى متحف اللوفر بعد ظهر يوم من أيامى الأولى فى باريس، ولبثت فيه حتى كسر الحراس قلة خلف الزوار المتشعلقين بشباك الفن «شاهلله يا سيدى لوفر!».

لم أك أفهم شيئاً فى الفن التشكيلى - ولا أحسبنى أدرك من أسراره اليوم سوى القليل - كل معرفتى به كانت قراءات ومشاهدة نسخ صغيرة من بعض الصور المشهورة، وإرتياد معارض الربيع الأولى بالقاهرة، وإطلاعاً لا بأس به على العصر الرومانتيكى فى الأدب والموسيقى والتصوير. ولكن مجرد رؤيتى لأصول بعض ما سمعت عنه،

أورأيته منسوخاً، وروعة الألوان - برغم اليوم العبوس - ثم بذخ مجموعات اللوفر من الصور، وبخاصة في البهو الكبير، والصائون المربع الشهير، جعلنى أحس بأن حياتى ضائعة لو ركبت القطار فى بحر ذلك الأسبوع إلى تولوز للالتحاق بجامعةها، على مدى اثنتى عشرة ساعة من باريس «تولوز إيه وبتاع إيه» إنسى باقى فى باريس، أو مطالب بإعادتى إلى مصر.

لم أنته فى قرارة نفسى إلى ذلك القرار لأهدد به - فلم أك غراً يسمى إلى ضياع مستقبله حمقاً - بل لأن قرارى يستند إلى خطة واضحة: إما أن أبقى فى باريس لأعيش الحضارة التى نشأت على الإعجاب بها، والإيمان بمقدراتها، وإما أن أعود إلى بلادى لأواصل احتراف مهنة الطب، وهى طريق ممهد إلى النعمة والثراء، أتمكن معه من العودة إلى أوروبا كل عام، أقضى إجازتى فيما أختار من عواصم الحضارة.

قضيت ليلتى أستجمع شتات أفكارى وأدبر أمرى مع مدير البعثات، وكيف أتقدم إليه بمعللات بقاى فى باريس عاماً أو عامين، قبل الانتقال إلى تولوز. والعجيب أن المدير - وكان المرحوم الدكتور حسن فؤاد الديوانى - رضى بما عرضته عليه دون جدال. لم أكن أعرف فى تلك اللحظة أن طريقه فى الحياة كان شبيهاً بطريقى. فما إن أتم دراسته الطبية حتى انتقل إلى العلوم وبرز فيها وعاد إلى مصر أستاذاً للبيولوجيا بمدرسة الطب المصرية، ثم عين مديراً للبعثة التعليمية بفرنسا.

الصعوبة الوحيدة كانت فى إقناع الدكتور الديوانى بأنى جاد فيما عرضته عليه من توسيع قاعدة بعثتى، وتصحيح البرنامج الهزيل الذى وضعه لها من لم يكن يعرف من أمر الأحياء المائية سوى أنها تربية السمك الأحمر فى الحدائق العامة، وفساقى رجال الدولة والأعيان! لم يوفدنى الديوانى للالتحاق بالسوربون فحسب، بل أوصى بى واحداً من زملائه القدامى، أخذ بيدي حين طرقت البحث العلمى بإشرافه فيما بعد - وكان هو أيضاً طبيباً تحول إلى البحث العلمى فى التشريح الدقيق للخلية (السييتولوجيا). وعدت بعد سنوات من بعثتى والدكتور بار فى طريقه إلى المجد. حتى قضى غريقاً فى إعصار الأطلنطى الشمالى مع بعثة القومندان شاركو، هو وصديقى الآخر كلوفيس جاكبير، ضمن الأربعين نفساً الذين غرقوا أمام إيسلنذة فى مأساة السفينة العلمية، «بوركوأبا» (سنة ١٩٣٥).

ولا بأس من أن أذكر هنا مصادفات عجيبة وهى أن أكثر من عملت معهم فى البحوث العلمية، بجامعة باريس، والمعهد الأقيانوغرافى، وجامعة تولوز، ومتحف التاريخ الطبيعى القومى، وبعد ذلك بسنوات فى بعثة السير جون مورى إلى المحيط الهندى، كانوا أطباء تحولوا إلى العلوم. فلم يكن ما صنعت عجيبة العجائب كما ظن بعض الزملاء الأعزاء. كلنت السوربون إذن أول ما عرفت من صور الحياة الجامعية. ولذلك حرصت على دراسة نظامها دراسة وافية، مع التركيز على كليات

العلوم والآداب والطب. فقد عدت إلى مقاعد الدرس أكبر سناً وتجربة من زميلاتي وزملائي الفرنسيين. وعرفت منذ وضعت قدمي على أعتاب الجامعة معنى الفرصة النادرة التي تُتيح لي وعي كل شيء حولي، وأن سنواتي في أوروبا وفي شرح شبابي هي فترة تخزين النمل في آخر الصيف من أجل الشتاء. فيها أستجمع ذخيرة العمر حتى أكون أقدر على خدمة بلادي. وأرجو ألا تؤخذ هذه الجملة على أنها كلام «إنشاء» وروى أشعار، وأن يعذر لي إغراق في المثالية، فإذا لم يكن المرء مثالياً في شبابه، فمتى يكون؟

لاحظت ظاهرة عجيبة في محاضرات علم الحيوان، وهي أنه من غير المعقول أن يرتفع مستوى التعليم هكذا فجأة بعد البكالوريا. فهاأنذا وقد درست في مصر مواد إعدادي الطب، وفسيولوجيا الإنسان وتشريحه، أتساءل حيال مستوى المحاضرات: كيف يتسنى لزملائي الفرنسيين وهم لا يحملون غير شهاداتهم الثانوية أن يتابعوا تلك الدراسة المفصلة. ونهبت إلى أكبر الأساتذة سناً أسأله عن «الكتاب المقرن» فترفق الشيخ الطيب بي، ولم يسخر مني بل أجابني بهدوء: لو أن الأستاذ حاضر من كتاب بعينه لما اعتبر هذا تعليماً جامعياً. وأملت على قائمة صغيرة لكتب علم الحيوان بالفرنسية والإنجليزية. وجدير بالملاحظة أنه تعفك عن أن يشير إلى كتاب من كتبه. وسألني إن كنت أعرف اللغة الألمانية، فأجبتته بالنفي، ودأبت بعد ذلك على دراسة

تلك اللغة الأساسية لرجل العلم، تلقيت دروساً خاصة بها طوال إقامتي بفرنسا، وعلى حساب البعثة. ونصحتني بأن أتابع المحاضرات وأيون مذكرات بها مع الاستعانة بتلك الكتب، قبل المحاضرة وبعدها، حتى أتمكن من فهم الموضوع الذي يعالجه الأستاذ بتوسع كبير.

وكانت البعثة تصرف لنا عشرة جنيهات في العام لشراء الكتب، وهو مبلغ صغير حتى في زمانه، ولكنه كان مغرياً ومشجعاً على اقتناء الكتب، بصرف النظر عن كفاية المبلغ أو عدم كفايته.

وقد حاولت أن أنتفع بمكتبة الجامعة فوجدت لها نظاماً يحتاج إلى صبر أيوب، بسبب ازدحامها بالطالبيين. وعندما انتظمت كطالب باحث فيما بعد، عرفت أن جل الاعتماد هناك على مكتبات الأقسام وهي حافلة وافية، لا تلجئ المرء إلى المكتبة العامة إلا للضرورة القصوى.

وساعدني تدريبي في مدرسة الطب المصرية (باللغة الإنجليزية) على تدوين المحاضرات بالفرنسية، ولم يكن ذلك سهلاً في أول الأمر، ولكن الموان والاتصال بالزملاء والزميلات، وعناية البعثة بنا لتمكن من اللغة، انتهت بي سريعاً إلى الالتئام بالبيئة الفرنسية، واكتساب تقاليدها وطرائق تفكيرها. و«استذكارها».

وأحب أن ألاحظ هنا أن الأستاذ لم يكن يحاضر في أكثر من نصف العام الجامعي، محاضرتين أسبوعياً، يركز فيهما على موضوع أو موضوعين من أبواب المادة، ويترك للأساتذة المساعدين مهمة تدريس

بقية المادة على مستوى الكتب الجامعة (تكست بوكس). ويختص بالتجارب والتدريبات العملية - تحت إشراف الأساتذة - مدرس يعرف برئيس الأشغال العملية، يساعده المعيدون وهم خريجون ممتازون مهمتهم الأولى هي البحث العلمي، إعداداً لدبلومات الدراسة العليا والدكتوراه، ويكلفون بالمعاونة في الأشغال العملية، مقابل منحة سنوية تسمح لهم بالكفاية المعقولة من العيش.

وملاحظتني على الحياة الجامعية في كلية العلوم هي الجديدة الصارمة، وقيام علاقات الزمالة بين الجديين. أما من يتخلف عن المحاضرات والأشغال العملية فما أسرع ما يهمله الزملاء، دون إظهار شيء مما يضررونه له من رثاء، أو عدم احتفاء. وكان هذا هو القيد الوحيد الذي يفرض على الطلبة الانتظام في عملهم، وهو كما ترى قيد أدبي اجتماعي محض.

والامتحانات تجري تحريرياً وعملياً وشفوياً، ولا يدخل الطالب الاختبار العملي إلا بعد أن ينجح في التحرير، ولا الشفوي إلا بعد أن ينجح في التحرير والعملي. وللشفوي أهمية كبرى في الامتحانات الفرنسية بعامة، ويجري علناً، أمام الزملاء. ولم ألاحظ في زملائي ظاهرة الخوف والرعب من الامتحان، ولا محاولة الغش. وكان الطالب يدرك أنه في هذه الحالة يغش نفسه، وهو لم يدخل الجامعة إلا ليحقق الكفاية اللازمة لمستقبله.

والطالب يقابل العميد في ساعات محددة أسبوعياً، ويدخل عليه حسب دوره في الطلب ليعرض أمره أو شكايته، جالساً أمام العميد تصاحبه أهم شخصية إدارية بالكلية. ولم ألاحظ أن العمادة تشغل الأستاذ عن بحوثه في تفاهات وديوانيات مزهقة. لأن الجامعة خضعت على أن تسند كل تلك الأعمال إلى مختص إداري يقوم بها «تحت إشراف العميد» ومع ذلك القليل الذي تقطعه العمادة من وقت أولئك العلماء الأعلام. فإنهم يعتبرونها ضريبة ثقيلة، فالعمادة هناك تكليف لا تشريف. وتصبح هي والأستاذية شرفاً بعد ختام مدة العمادة، أو إحالة الأستاذ على التقاعد في الخامسة والستين، (تمتد إلى السبعين لأعضاء أكاديمية العلوم) وهذه قاعدة أساسية في فرنسا: أن يستبقى العمداء والأساتذة ألقابهما شرفياً مدى الحياة.

ولا أنسى منظر العلامة الرياضي الكبير جان بانليفيه - وكان قد تولى قبل وصولي رئاسة الوزارة، ثم تركها - منحدرًا على سلم السوربون، حاملاً حافظة أوراقه، ومتجهاً إلى محطة الأتوبوس بشارع المدارس، ولا المسيو شيرون، من وزراء المالية السابقين، وقد شاهدته نازلاً من الأتوبوس أمام باب الوكسمبور (مقر مجلس الشيوخ) ليؤدي واجب عضويته بذلك المجلس.

لا شك أن الكثير من هذا تغير الآن، وقد غدا لكل خمسة أو ستة من الفرنسيين سيارة، وزاد عدد الطلبة زيادة بلغت حد المشاكل، وتغيرت أخلاق الشباب بعد الحرب والاحتلال النازي. ولكن ما لا أحسبه تغير أبداً هو حرص الجامعة على استقلالها، فوزير المعارف هو رئيسها الأعلى (صورياً ودستورياً). والاحترام الذي يحظى به لا أساتذة الجامعة وحدهم، بل رجال التعليم عموماً في بلد روحها وحياتها في المعرفة والثقافة والارتفاع بالذوق الفني، والاحتفاظ بالمثل العليا في العلم والتعليم.

obeykandl.com

أهلاً وسهلاً بالأحباب

عندما ركبت السفينة والجنرال متزنجر، من الإسكندرية في نوفمبر سنة ١٩٢٥، وصحوت ذات ليلة قبل الفجر لأشاهد أضواء مدينتي ريجيو ومسينا على جانبي المضيق بين إيطاليا وصقلية، ورأيت بركان سترومبولي وجزائر اسكيا وألبا وكورسيكا، وعندما وصلت إلى ميناء مرسيليا، أيقنت أنني دخلت دنيا الغرب، أوروبا الموموقة المرموقة. هأنذا أضع قدمي على أرض فرنسا، وريثة حضارات الشرق والغرب.

كنا جمعاً غفيراً من الشبان على ظهر الباخرة، أغلبنا سيواصل رحلته عبر فرنسا، ليبلغ مقر بعثته في الجزر البريطانية. ولم يكن في مجموعتنا القاصدة إلى باريس من سبقت له معرفة مرسيليا، ولا فينا من له أدنى خبرة بإجراءات الخروج من الميناء، فاضطررنا إلى الانصياع لواحد من الصياع، ظل عالقاً بنا حتى خرجنا من المنطقة الجمركية إلى محطة سان شارل، في الطرف الآخر من طريق «الكانبيير»، لنحجز أمكنتنا في قطار الليل إلى باريس. وحل ميعاد الغداء، والمدينة التي اخترقنا شوارعها عامرة بالمطاعم. فماذا كانت حاجتنا إلى الدليل الصايغ ليدور بنا في دروب وضيقة حتى نبلغ مطعماً لا ينذر منظره

بخير، وقف ببابه رجل يلبس قميصاً بدون ياقة من الصنف الذي يزرر أعلاه بزر من نحاس ويبرز من قفاه زرار نحاسي آخر، هما مربوط الياقة، إن وجدت وكان لها اعتبار عند صاحبها.

ولا أذكر ماذا كان يلبس في قدميه، لم يكن حذاء عنى كل حائ، ربما كان شبشباً، ولكن السنوات الطوال التي مضت على التجربة المرسلية الأولى تصوره لى منتعلاً.. قبقاباً! هذا الزرى الهيئة والبزة، الشبيه بالخواجات الغلاية أيام زمان بشارع كنوت بك أو درب الجنيئة، استقبلنا هاشاً باشاً، وصفق بيديه على الطريقة البلدية، واحتفى بنا فى عربية لكناء:

- أهلا وسهلا بالأحبا!

ودخلنا المطعم البلدى لنجلس إلى موائد من رخام أو زنك أو خشب، وقدمت لنر قائمة الطعام مكتوبة بفرنسية ماسحة، وعربية «كنغابيش» الفراخ، تزاخم هذه وتلك أصناف من البقع. وأكلنا طبق «مبرومة» - أى باهية - وأرز، وربما جاء الحلو كنافة أو عيش السرايا، والله أعلم!

أى إنه بعد خمس ليال قضيناها عبر البحر الأبيض المتوسط، وبعد معيشة أشبه بما سيجرى فى فرنسا، وقد بدأنا «نتمرن» عليها، وبعد مشاهدة المدن الإيطالية والكورسيكية، ولو على البعد، ثم مرسيليا..

كاننا يا بدر!

وخرج «الأحبا» نلتجول فى مرسينيا، وقد عرفت فيما بعد أن ذلك الميناء، فى أحيائه القديمة، مباءة للجرائم، وملتقى أشرار الأرض

طراً، وأن من الخطر على السائح أن يتوه في الأزقة، وبخاصة إذا اقتاده إليها دليل يحترف شتى الحرف، أبسطها القوادة!

اقترحت على «الأحباب» أن نزور متحف المدينة فركبنا إلى قصر «لوفشان»، ولا أذكر مما رأيت في ذلك المتحف شيئاً، فلم أعد إليه بعد ذلك أبداً، برغم المرات الكثيرة التي مررت فيها بمرسيليا. أذكر فببقية جميلة أمامه في وسطها مجموعة نحت لعلها تمثل بوسيدون إله البحر يسوق خيوله البحرية ذات الأعراف المتماوجة، أذكرها لأن «للأحباب» صورة على حافة ذلك الأثر لا أجدها تحت يدي توا.

ثم سعدنا آخر النهار فوق ربوة أقيمت عليها كنيسة «سيدتنا الحارسة». وكان يوم أحد، فسمعنا ترتيل ألحان باصطحاب الأرغن، وشاهدنا غروب الشمس في منظر لا ينسى.

وفي الليل ركبنا القطار، ووصلنا باريس صباح اليوم التالي في عيد «الكتريونات» حين تخرج فتيات المتاجر في حلل العيد ويذهبن إلى الكنائس يبتهلن إلى القديسة كاترين أن تنعم عليهن بالعريس الفالح خلال العام المقبل. وفي المساء تزدهم الشوارع بهن: وبمواكب ملكتهن. ويخطف الشبان القبلات خطفاً، وكأنهم يخشون أن تتحول القبلة إلى شبكة فخطبة فزيجة.

كل هذا كلام فارغ جرى به القلم وأنا أحاول استعادة ذكرى سفرى الأول إلى بلاد الغرب، فترنح القلم بهذه التقاهات. ولكن ماذا يحول

بينى وبين إحياء تلك الذكرى؟ الواقع أن البحر أصبح فيما بعد،
ولسنين طويلة، موضوع دراستى: أمواجه وأمواجه. وتياراته وقيعانه،
ونباته وحيوانه، وأن أسفارى على سطحه، وعملى على شواطئه دامت
ربع قرن، ركبت خلاله السفن الكبار والصغار، عابرات المحيط
ومراكب الصيد، كواتر النزهة وسفن الأبحاث. ومع كل ذلك فإحساسى
هو أن أعجب وأجمل وأعمق الرحلات أثراً.. كانت العبور الأول من
الإسكندرية إلى مرسليليا.

وهانذا أسأل نفسى عن تفسير لمجموعة أفعل التفضيل الواردة فى
الفقرة السابقة فلا أحرار جواباً. فالبحر فى تلك الرحلة الأولى لم يكن
أكثر من «توصيلة»، ولم تحتو الرحلة على شىء غير عادى، فلا عاصفة
هوجاء مما اختص به البحر الأبيض فى الشتاء، ولا ظواهر أو وقائع
مثيرة داخل السفينة أو خارجها.

والعجيب أن روعتها لا تتجلى الآن كمجرد حنين إلى الشباب - ولو
أن فيها من هذا ما لا أنكر - بل لأن ذاكرتى تؤكد لى أنها كانت رائعة
فى وقتها، وأننى كنت مدركاً تمام الإدراك معنى ذلك الانتقال من
وطنى الحبيب إلى البلد النائى الغريب.

لا محيص إذن عن الالتجاء إلى المذكرات التى كتبتها فى حينها،
مهما كلفنى ذلك من «شيل وحط» فى كتب ومجلات وأوراق وكراريس

وسليبيات صور وخرائط رحلات... و... فلنفحص بعض ما جاء
بتلك اللحظات العاجلة:

«كل شيء جديد عليّ: إجراءات الميناء، الصعود إلى ظهر الباخرة،
البحث عن الكابينة... الإعجاب بمنظر السفينة تبعد عن الرصيف
وتدخل البوغاز لتخرج إلى عرض البحر».
«قضينا نحو ساعتين أو أكثر نرى البر، تعبنا من النظر إلى الأرض،
وتحولت عنها إلى تأمل الأفق على مد البصر. استنشقت نسمات خَيْلٍ
إلى أنها جديدة، وشعرت في تلك اللحظة بأنني أتخلص من سجن،
وأني أتشم الحرية».

وهذا الإحساس بنسيم الحرية لازمى طول حياتى البحرية كلما
غادرت سفينتى الميناء. حتى أيام رحلة الباخرة «مباحث» فى المحيط
الهندي، حيث كانت هى السجن لثلاثة أو أربعة أسابيع، والأرض
هى الانطلاق والحرية نحو أسبوع. ومع هذا، فما أكاد أبلغ قمرتى ليلة
الإبحار وأخلع سترة المدينة لألبس ما أسميه بدلة القرصان، حتى أولى
ظهري للأرض، وأستقبل البحر، والسفينة، وطناً للحرية، لا حرية
الجسد، بل حرية الروح.

«إنها لحياة سعيدة على ظهر السفينة، حياة نسيان. غادرنا أرضاً
لفصل إلى أرض، الماضى والمستقبل، فترة اتصال بين حياتين. هنا عيشة
منتظمة متناسقة، حركة داخل حركة، حياة طليقة داخل سجن سعيد».

«وقد أفكر بتاريخ البحر الأبيض المتوسط، بسفن يونان تؤم أرض اليون،
أو بسفينة أودسيوس تقيه في ببداء الماء. أفكر بالأساطير التي قامت حول
شواطئه: الهسبريدة، السبلا والكاربديس، الجزة الذهبية بأرض
كولخيدة، وأطلس يحمل عمد الدنيا في أقصى الغرب. أصاحب سفن فنيقيا
من صور وصيدا إلى الموانى البعيدة، وجحافل هانيبال تعبره لتتحدى
روما، وجيوش سبيون الإفريقي تنحدر من الشمال لتدمر قرطاجة «دليندا
كارتاجو»، وسفن كليوبترة ومارك أنطونيوس أمام رأس أكتيوم، وجاريات
جنوا وفرنسيا. البحر الذى يبتلع التاريخ ولا يغيره الزمن».

«العاصفة! (لم تكن عاصفة ولا دياولو) ظهر السفينة الذى كان منذ
لحظة ممرحاً وملهى. أقفر فى طرفة عين واختفت الوجوه المستبشرة
وقد علتها غبرة وصفرة، وآوى كل إلى ركن أو قمرة، كأفراخ طير
ضعاف. حتى المائدة لم أجد عليها إلا بعض ركاب السفينة».

«والليل حالك، ولكن البرق يخرق السحب فى خطوط متعرجة،
كأسنة الأفاعى الخرافية من لهب، أو سيوف تجردها أيدى الجن
فى لمح البصر».

«وهدير العباب يغطى على قصف الرعود، والمطر ينهمر بلا شفقة..
آوى إلى غرفتى فأطمئن إلى وجيب السفينة والمحركات لم تفقد رأسها.
وأستلقى على السرير الصغير يتابع حركة السفينة العوبة الموج. فما هى
إلا لحظة حتى أروح فى سابع نومة!»

«كيف كانت العاصفة وكيف انتهت؟! إن سلطاناً أقوى من العاصفة
قد تملكنا، هو سلطان الجسد. ونحن قبل أن نكون العوبة الطبيعة،
لعبة لطبيعتنا، خلايا الجسم تنشد الراحة قبل كل شيء».

«كنت أرقب كل ليلة قيام البحر قرب انتصاف الليل، أتأمل في
مقعدى خلال زجاج النافذة تلك الكتلة الهائلة من الظلام، وأنصت إلى
هدير الموج، كأنه صدر إله من آلهة الاسكندناف يرتفع وينخفض تحت
تأثير غضب هائل، فأقوم مترنحاً لأنزل إلى غرفتي فأشعر بالهدوء
والاطمئنان».

«هذه حياتى على ظهر الجنرال متزنجر».

«صحوت الساعة الخامسة وكان الظلام شاملاً، والجو فى رطوبة
الفجر، والسفينة لا يسمع فيها غير صوت آلاتها، وأقدام المبكرين،
وبعض أفراد الطاقم يغسلون الماشى».

«أشباح سوداء فى الفجر الرمادى، قطع من الظلام كأنها ظهرت توأ
من قاع البحر. لأنفا حتى غروب شمس البارحة لم نر أثراً للأرض منذ
غادرنا الإسكندرية، واليوم أرى الربا على جانبي السفينة ترصعها
مصاييح تضاءل نورها على البعد، السفينة تجتاز مضيقاً بين أراضين
عليها أثر الحياة، ولو أنها الحياة النائمة.. وكان نور الصبح ينبج
فيكشف عن الأرض شيئاً فشيئاً. والسماء ارتسمت على صفحتها قطع
السحاب رمادية اختلطت بها بعض قطع من نور.. إلى أن تبينت شاطئ

إيطاليا وشاطئ صقلية، والمنازل ذات الأسقف الهرمية متناثرة في الأودية وفوق سفوح التلال، والطرق مناسبة في خطوط تظهر بسيطة التعرّيج من هذا البعد، والمصاييح تنطفئ واحداً إثر الآخر، كتلك النجوم تختفي تحت لمسة الصباح. ثمة قطار يقطع المسافة، يبدو بطئ السير جداً من هذا البعد، صغيراً كألعوبة الصبي.

وتلى فقرات تصف بركان سترومبولي بالطول والعرض. «والدخان يتصاعد من فوهتين كبيرتين، ومواضع أخرى حولهما، يصعد أكثره في عمود ضخم نحو السحاب، ليتصل به ويندمج فيه، أو هو صانع سحاب نفسه، وينساب بعض الدخان كالأفاعي على جوانب القمة إلى مسافة قصيرة، ليتلاشى بعدها».

وفقرات عن شواطئ إيطاليا تبدو خطوطاً سوداء يتعرج بها خط الأفق. وقد غدا من النادر أن تمضي لحظة دون أن نرى أشباحاً بعيدة تنتشر في الأفق حولنا. «هذه هي جزيرة كورسيكا، ولاسم كورسيكا رنين في نفسي، هو ترجيع صوت الابن الذي غادر جزيرته ليحكم على أقدار الممالك في أوروبا. وذكرت والده المحامي البسيط - شارل بونابرت - وأمه ليتسيا تفرمل عن ستة أو سبعة أولاد». وهنا استعراض سريع لما تذكرت من حياة نابليون. «كم وددت أن تسرع السفينة لأصل إلى باريس، وأقف تحت قبة الانقلاب، أترك نفسي للذكرى قرب ضالتها: ذلك الجثمان المجيد».

كنت شديد الإعجاب فى شبابى «بالكابورال الصغير». وكلما نما الفكر ونضج العقل واتسعت التجارب، هبط سعر العبقرية العسكرية. وقد كره زماننا مثيرى الحروب، عباقرة أو مجانين.

انصرفت إلى تأمل الطبيعة الكورسيكية كما تظهر فى البعد. «تلك الجبال والمنازل، والطرق المتعرجة والمسالك الوعرة، والبحر والسفينة، ليس فيها جديد لعينى، ولو أنها جديدة على إحساسى. فقد رأيتها فى الكتب والصور والسينما. حالة العالم الآن لا تجعلنا ندهش من شىء لأول وهلة. إنما الإحساس برؤية الأصل والحقيقة هو إحساس بكر أصيل أشبه بتحقيق حلم جميل».

ثم هذه الخطرة الغريبة نتيجة رؤية المدن على البعد: «يا لله! ما أجمل منظر المدن من البعد، حينما نحيط مدينة كاملة بنظرنا. كأن نقف على ربوة، أو فى أعلى الأبنية الشاهقة. بهذا الفرق هو أن الصورة باقية أمام أعيننا لا تتحرك فإذا هبطنا من المرتفع ابتلعتنا المدينة وابتلعت إحساسنا بها».

«ولكن فى السفينة نبتلع المدن، ونبتلع الجبال والبراكين. فهناك كان سترومبولى ضخماً مخيفاً، مكشراً عن فوهات تنفث الدخان الأبيض والأسود. ماذا بقى من سترومبولى؟ صورة صغيرة، فنقطة، ثم لا شىء، غير الأفق وغلالة الدخان كسحابة واقفة».

«المسافة! كلمة صغيرة ولكن أى غول هائل، فهى قديرة على ابتلاع الأرض كافتها. لأتصورنى - مثل بطل قصة إدجار الن بو - مصعداً إلى جرم

سماوى حتى أصل إلى حيث أرى الأرض نقطة منيرة، نجماً بين النجوم.
وماذا يمنعنى من تصور وصولى إلى أبعاد لا أرى منها هذه الأرض؟».

«بعد اختفاء كورسيكا لم يبق أمامنا إلا الوصول، وحياة الحلم بدأت
تعود حقيقة تبعث على التفكير. ماذا أفعل عند النزول إلى البر، وأنى
أذهب، وكيف أسافر؟» سؤال عجيب من طبيب شاب فى الخامسة
والعشرين من عمره!

وفى مرسيليا «نفس الإحساس يتكرر وسيكرر. لقد تعودت أن أرى
أوروبا فى الصور والسينما وأن أتخيلها فى مطالعاتى. ووجودى بالميناء
الفرنسى لا أصدقه بسرعة، ولا أشعر لأول وهلة بأننى حقيقة أمشى فى
مدينة أوروبية. والأغلب أننى حملت من صالة سينما ووضعت فى فضاء
سحرى، أو أننى صورة صغيرة فى كارت بوسقال تتحرك كأشخاص
المتدل. إنه لإحساس غريب، ولكنه حقيقى، لا يتلاشى بسرعة».

وأخيراً هذا الانطباع من زيارة متحف فن تشكلى (قصر لونشان
بمرسيليا): «إنها المرة الأولى أرى أصول صور وتمائيل كنت أقضى
بعض يومى فى مصر باحثاً عن منقولات ضئيلة على كارت بوسقال
لأمثالها. هأنذا أرى الأصول لأشياء تلك الصور».

«جعلت أتمتع بهذه المشاهدة فى لهفة، لا أنظر إلى التفاصيل، بل
أترك نفسى على سجيتها تفعل وتتأثر. ماذا يهمنى أن يكون لتلك
الصور قيمة فنية؟».

الخطوات الأولى بباريس

لست

ممن يشجعون على الإطلاق فكرة الاستغناء عن البعثات التعليمية إلى الخارج، والاكتفاء بالبعثات الداخلية، أي بما حصله الطالب من علم وفن وتكنولوجيا في مصر. ولا أنكر أنها فكرة صحيحة ولكن بقدر، وفي حدود ضيقة. فلا داعي لتحميل الدولة عبء إيفاد أولئك الذين يكتفون في الخارج بارتياح قاعات الدرس، وحيازة درجات علمية يمكن أن يحصلوا عليها في بلادنا.

وصحيح أيضاً أن سفر الشباب إلى الخارج بشهادة ثانوية أو بأقل منها خطر يجب حماية العيدان الرطبة منه. ولا أعرف في العصر الحديث بعثات نجحت تماماً، مع أن أعضاءها أوفدوا غلماناً، سوى البعثات البحرية التي سافرت إلى إنجلترا في العشرينات. ويمكن القول دون مبالغة بأن الفضل في تقدم البحرية المصرية وتطورها السريع يعود أصلاً إلى تلك البعثات البحرية الأولى. فرجل البحر - كدارس الموسيقى - يتعين أن يبدأ مبكراً جداً في تعليمه وتدريبه. وإذا صح الآن أن نهضتنا الحاضرة تسمح بالتدريب الباكر والتعليم البحري الصحيح في بلادنا، فإن ذلك لم يكن يصح في أوائل العشرينات لضآلة

ممكناطنا البحرىة هىنذاك؁ بعء أن ءرءنا العاصب المءءل من أسباب القوءة فى البر والبحر.

ءق إءن أن نقصر البعءاء الىوم على شباب ناضء ءصل فى بلاءه أقصى ما ءءءمه معاهءها العلىا؁ وأن نستمسك فى اءءىار إرسالىاءنا بمبائى العءالة الكاملة وءقة الموازىن؁ مع ءءوكىء على أهمىة إىفاء أكبر عءء من هؤلاء؁ لأنهم ىءعلمون فى الأءارء أشياء أوسع وأعمق وأقوى أثراً من مءرء العلم وءءربىب والءصول على شءاءاء.

فالشباب الناضء ىسافر إلى الأءارء مءركاً أعباء مسئولىاءه؁ أءر على قىاء نفسه ءاأل المعهء الأءنبى؁ وآارءه؁ ءلال ءىاة ءءءلف اءءلافاً شءىءاً عن ءىاءه فى مصر. والءالب أن ىءرك مقءماً وىؤمن بواجبه نءو وءنه؁ لا من الناءىة العلمىة والعملىة وءءها؁ بل من الناءىة الاءءماعىة والأءلاقىة وءءافىة.

ولا ىفوءنى هنا ءوكىء المساواة فى بعءاءنا بىن الفءى وءفاءة فى كل مهنة اقءءمءها البنء المصرىة إلى ءانب الشبب؁ لأن وعى المصرىة لوءوه الءضارة وءءافة العلىا أكبر أثراً فى مسءقبل البلاد من وعى الشبب؁ وأسباب هذا ءلىة لا ءاعى فىها لاسءىءاء صورة «من ءهز المهد بىمىننا أو ىسارها إلء».

أصءر فى كل هذا عن ءءربة ءوىلة المءى؁ وءء عرفء فى أوربا كىف أمىز بىن زملاء ىرءى منهم الءىر العظىم - وءء ءءقوا فعلا

هذا الرجاء - والمزلاء الذين يجرى عليهم المثل السائر «حمار الصيف حمار الشتاء»، وهم من لا يتعدى اهتمامهم فى حياتهم بالخارج حدود قاعات الدرس والتحصيل، دون اضطلاعهم بفهم الأسس التى قامت عليها الحضارة الأوربية، وسر تقدم الغربيين فى مدارج الحياة الفكرية والفنية والعلمية والعملية. ودعك ممن يبخسون قدر هذه الحضارة، ويتكئون على «روحانية الشرق»، ومادية الغرب. فإذا كان معظم الخير فى الشرق هو الروحانية، فإن خيرات الحضارة الأوربية تشمل الروح والمادة معاً، فى توازن أخل به الاستعمارىون والمغامرون النفعيون، ولم تتجل الحضارة الأوربية لنا غالباً إلا فى أبشع صورها، أى فى الرأسالية والأمبريالية.

والملاحظ - باستثناء التجربة الحية التى يعيشها الطالب فى الخارج - أن كل من تشرئب روحه إلى الرقى الحضارى والتحرر الفكرى يستطيع أن يبلغ الكثير دون أن يغادر بلاده، والنموذج المثالى هو المرحوم عباس محمود العقاد، والفئة المشرقة الحية من أدبائنا الشبان. فهؤلاء يملكون القدرة على متابعة الحركات الأدبية فى الشرق والغرب متابعة طيبة بالاطلاع والدرس العميق، ولا يعتبر نقصاً إن لم تهباً لهم فرصة الخبرة بالمجتمعات الأجنبية.

ولكن هذا لا يصح دائماً فى كثير من المجالات الأخرى، كالتمثيل والموسيقى والسينما والفنون التشكيلية، كما لا يصح فى كل جديد من

العلوم والمعارف والتكنولوجيا، لأن التجربة الحية والمران والاتصال المباشر أمور لا غنى عنها.

ذهبت إلى فرنسا معبأً بمعنى الحضارة الأوربية في أصولها الفكرية والفنية، مؤمناً بأن مستقبل الوطن رهين بالتمكن من مقوماتها الحقة في الفكر والعلم والفن والأدب، لا في مجرد نقل التطبيقات العلمية والخبرة التكنولوجية. فأساس التكنولوجيا هو العلم والبحث، وأساس العلم البحث هو الفكر المجرد ينطلق بحثاً عن حقائق الأشياء في مجال حر. وقد خرجت بلادنا بفكرة عجيبة، هي قلة جدوى الدراسات النظرية، والبحوث الخالصة لوجه العلم، وهل من داع لوجود كليات آداب في كل جامعة مثلاً؟!!

معنى ذلك هو إقامة حياتنا القومية على مجرد النقل، لا على تقييم الوجدان والعقل، وإعدادهما للإبداع والابتكار. والابتكار في العلوم يشبه من بعض الوجوه الإبداع في الفنون والآداب. فإنك في الناحيتين إما أن تكون مجرد ناقل ناسخ، ولا قيمة كبيرة لما تنجزه، وإما أن تكون مفكراً، أو عالماً، أو فناناً أصيلاً، فتساهم في بناء حضارة وطنية قوامها الفكر والإحساس، وأساسها العلم والمعرفة.

لقد أوفدت في بعثة كل برنامجها أن أتعلم تربية السمك، وكان تعليمي الطبي فيه الكفاية وأكثر منها أساساً لما وضعت البعثات برنامجاً لي. أما وقد سافرت على شيء من النضوج، وعركت بمصر

الحياة العملية سنتين اضطلعت فيهما ببعض المسئوليات، فقد أدركت أن تطوير الاقتصاد القومى فى ناحية الثروة المائية يتطلب شتى المعارف والخبرات. وبذلك تمكنت فى يسر من إقناع الطبيب العالم مدير البعثة التعليمية بباريس بوجود البدء من أول السلم، أى بدراسة التاريخ الطبيعى والبيولوجيا والفسىولوجيا كعلوم بحتة أقيم عليها تدريبيى العملى بمراكز الصيد ومناطقه، ومعاهد الأحياء المائية وعلوم البحار لا فى فرنسا وحدها، بل فى شتى الأقطار الأوربية. وقد كان، فلا أعرف عضو بعثة أكرم بقدر ما أكرمت حين يسرت لى البعثة تحقيق هذا البرنامج إلى ما يقرب من الكمال فى خمس سنوات.

ما إن اطمأن قلبى إلى البقاء فى باريس حتى طفقت أبحث عن سكن حرصت على أن لا يبعد كثيراً عن الجامعة، وفى هذا تقول مذكراتى: «أريد أن أستقر فى مكان لأعود إلى هدوئى الداخلى، وأبدأ حياة منتظمة».

كان لقائى الأول بباريس مضحكاً بعض الشيء، عندما اندفعت جماعة «الأحبا» ذات صباح عابس من محطة ليون إلى فندق صغير بالحى اللاتينى فى شارع من أصغر وأقصر شوارع الحى - وما زلت أذكر ليلة حاولت العثور عليه، فدرت حوله قرابة ساعة ما بين بولفار سان ميشيل وشارعى جى - لوساك، وسوفلوا

والفندق مازال قائماً، وقد طالعت فوق بابه فى العام الماضى لوحة أظنها وضعت حديثاً تشير إلى أن عالم التحليل النفسانى سيجموند

فرويد سكن في هذا المكان ستة كذا، والغالب أن قد حدث هذا فعلا في
مستهل القرن.

ومما ضايقتني أن اضطرتنا صاحبة الفندق إلى مشاركة كل اثنين في
غرفة، وكان من نصيبي فتى شامى لا علاقة له لا بالبعثة ولا بالتعليم،
وقد نسيت الهدف من رحلته. لصق بنا منذ صعودنا إلى الباخرة
«الجنرال متزنجر» حتى بلغنا الفندق في باريس.

وعندما جن الليل التأم شمل «الأحبا» وسرنا في الطرقات نشاهد
مواكب «الكاترينات»، فإذا شريكى في الغرفة، وقد رأى الشباب يهجا
على الفتيات لاختطاف القبلات، نزل كالجائع العطشان يقبل هذه وتلك
ويسخر من تزمتى ووقارى!

عدت إلى غرفتى وحيداً، أحمل هم ذلك الرفيق الصفيق، عندما يعوا
من تجواله. وإذا به يدخل على، وأنا فى أول إغفائى، ويغير ملابس
تأهباً للسهرة، ويزعق منفعلاً «كيف أنام فى باريس والبلد ما بتريا
تنام»، وطار إلى خارج الفندق.. ولم يعد فى ليلته، بل لم أر وجهه
منذ ذلك الحين!

ولما كانت صاحبة النزل تأبى أن تؤجر غرفها الكبيرة لشخص
واحد، فقد انتقلت إلى فندق حقق لى الانفراد. ثم كان من حسن
حظى أن وفقت فى بضعة الأيام التالية إلى بنسيون بوجوازي علم
قيد خطوات من الجامعة ومن المعهد الأقيانوغرافى، تطل منه نافذتم

بالدور الرابع على حديقة اللوكسمبور وقد تعرت أشجارها الباسقة من أوراقها، وعلى مجلس الشيوخ القائم في وسط الحديقة، وأرى أبراج كنيسة سان سولبيس على البعد، وكذا أسهم أبراج السانت شابيل، وأسمع دقات ساعة كنيسة السوربون.

وكان سكان البنسيون يجتمعون حول مائدة طويلة واحدة في الغداء والعشاء، وجلهم من الفرنسيين، ومن بينهم أسرة كاملة جاءت من الأقاليم لترعى أولادها في المدارس والجامعة، وطالبة تدرس اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية.

فهذا الاستقرار في نُزُلٍ محترم، وسط فرنسيين، وشابيين من أبناء عليّة القوم في اليونان ورومانيا، ساعدني كثيراً على ممارسة اللغة الفرنسية واستيعاب الحياة الاجتماعية فيما لا يدرك من الكتب أو الدوريات. وإذا كان تسعون في المائة أو أكثر من طلبة كلية العلوم فرنسيين وفرنسيات، فإن خطواتي الأولى بباريس تنقلت وسط أهل البلاد فيما بين المسكن وقاعات الدرس.

تقول مذكرتي في ديسمبر سنة ١٩٢٥، وقد وصلت إلى باريس في ٢٣ نوفمبر، بأنني معجب بالحى اللاتيني ومظهر الطلبة فيه، وأننى شهدت متحف اللوفر، وتجولت في شوارع المدينة العظمى لأتعرف على معالمها، وزرت قصر الأنفاليد، وذهبت إلى الحفلات السمفونية، وسمعت الموسيقى الدينية في كنيسة السوربون. وإن

أول تمثيلية حضرتها هي «تاجر البندقية» بمسرح الأوديون، إخراج وتمثيل جيمييه، والثانية «سانت جون» لبرنارد شو إخراج جورج بتوفيف، وتمثل لودميلا بتوفيف دور البطلة العذراء، والثالثة رواية «محتوى البشر» لموليير تمثيل ألبير لامبير على مسرح الكوميدي فرانسيز، ومعها فارص «الحب المداوى». وتصف المذكرات «شعور الرهبة والإعجاب والدهشة، وهو ما يتملكني كثيراً منذ حضوري إلى هنا، عندما دخلت الأوبرا لأرى وأسمع أوبرا "بوريس جودونوف" للموسيقى الروسى الأعظم مسورجسكى».

وتعددت زياراتى لقصر اللوفر، علقت على زيارة خصصتها لقاءات النحت فى العصر الكلاسيكى قائلاً: «والآن أقوم إلى النوم ومرأى التماثيل البديعة لا يزال ماثلاً أمامى وسأغمض عيني لأرى فى الظلام أشباح تلك التماثيل الخالدة تدور حولى كما كنت أدور بينها. فينوس ميلو لن تبرح مخيلتى، والسعادة التى تشملنى وأنا أستعرض فى رأسى تلك الأعمال العظيمة هى سعادة تجعلنى أحب الحياة أكثر من ذى قبل، الفاحية العالية من الحياة».

«لنستوح تلك الصخور الحية مرة أخرى، فهى رسالة الفنان إلينا، والفنان نزل على الأرض يحمل علم الإحساسات الرفيعة، والتفكير السامى، ويتكلم بما توحىه إلينا تلك الأعمال الخالدة».

«سأنظم وقتى لأذهب كثيراً وبطريقة دورية إلى اللوفر، وسأزور قاعات الصور على مهل. فحياتى لا تجرى على نظام حتى هذه الساعة، وعلى واجبات كثيرة أريد أداءها: درس العلم أولاً، ودرس الحياة الباريسية، والاطلاع على كل ما يجرى حولى»..

«أما خطتى فهي بسيطة: أريد أن أعيش عيشة كد واجتهاد، على اتصال بالقرن الذى أحب، والعلم الذى أحصل. الاطلاع فى المنزل، وتتبع الحركة الفنية خارجاً: الموسيقى والقياترو والتصوير والحركة الأدبية. وإذا استطعت شراء كمنجة هذا الشهر، فسأبدأ دروس الموسيقى عن قريب».

وختمت مذكرات عام ١٩٢٥ مشيراً بهذه الفقرة القاصرة إلى زيارة جديدة لقاعات الصور بقصر اللوفر: «هذا بعض ما أذكره مما رأيت اليوم. أما أن أتكلم على شىء، فذلك ما لا أجد فى نفسى ولا على لسانى، ولا فى قلمى قوة للتعبير عنه. كل ما أستطيعه هو القول بأننى أعيش فى يوم مثل هذا خمس سنين من حياتى».

ذلك ما كان من أمر خطواتى الأولى بباريس.

obeykandl.com

دراسة وبحوث وتحصيل حضارة

لا يتوقعنَّ القارئ أن أقحم خصوصياتي على هذه الصفحات، فإنني لا أكتب هنا ترجمة شخصية، بقدر ما أسجل لمحات عاجلة من رحلة الحياة. أزعم أو آمل أن يجد فيها القراء مأرباً. هأنذا أحاول أن أستعيد دون ترتيب زمني بعض ذكريات نيف وخمس سنوات (نوفمبر ١٩٢٥ - فبراير ١٩٣١).

بدأتها طالب علم بأوروبا، فتعلمت أشياء، وحصلت حضارة. ودرست علوماً جديدة، وأضفت لغة إلى اللغات الأجنبية التي تعلمتها أو بدأتها في مصر. حصلت أربع مقومات للحضارة: حب العلم لذاته بما يعدل ويوازن حبي للآداب والفن، وكلف بالرحلات في البر والبحر، وقد زرت خلال بعثتي عدة أقاليم فرنسية، ثم إنجلترا وتونس والجزائر وألمانيا والدانيمارك والنرويج وإيطاليا والنمسا. ووعيت الفن روح الحضارة وقلبها النابض، ووعيته في معناه العام لا في تخصص بعينه، ما عدا الموسيقى التي حرصت على دراستها وممارستها إلى أقصى ما في مقدرة الهاوى الجاد. وأخيراً تمكنت من التغلب على الرومانتيكية، وانتقلت من المذاهب الواقعية إلى شتى الحركات المعاصرة في الفن والآداب، بفضل المتابعة القريبة لما يصدر من كتب، ودوريات، ويلقى

من محاضرات عامة، ويسمع في قاعات الموسيقى والمسرح، ويعرض في المعارض.

هذا نموذج - على سبيل المثال - من انفعالي بالأدب المعاصر، فقد عدت من إنجلترا سنة ١٩٢٩ ومعى كتاب «بنط كونترا بنط» لألداس هكسلى، نبهنى إليه مقال لأرنولد بينيت. وسجلت في مذكراتى هذه الكلمة، عقب انتهائى من الفصل التاسع لتلك القصة التى كان لها فى العشرينات أثر بالغ: «باريس فى ٧ مايو ١٩٢٩: الأولى بعد منتصف الليل! سعيد فى جلستى. اكتشفت كاتباً قوياً مفعماً (؟؟)، ألداس هكسلى. لم هذه السعادة؟ أشعر بالقوة الذهنية يختلج بها الكتاب الذى أطلعه الليلة. يا لله! كأنى بلغت بئر الحياة (أشير هنا غالباً إلى أسطورة مية المحياة)، والحياة يتسع مجالها أمام بصرى، خطوة إلى الأمام، وتحفز لوثبة أخرى فى مجهول المستقبل. أهو مجهول إلى هذا الحد؟ ما هذه الآمال الجلى؟ يا للغضب يملأ صدرى، وتلك البراكين الثائرة فى جوانحى متى تجد منفذاً، وإلا فستنفجر فى داخلى لتبعثر كيانى للرياح».

وهذه مناجاة للمصور الهولندى رمبرانت والألمانى ألبرخت دورر، عقب زيارة للمتحف الفنى التاريخى بفينا:

«فينا فى ٢٧ أغسطس ١٩٣٠: أنت يا رامبرانت صديق قديم، فى عيونك العميقة وشفاهك المظلمة أطلع سماء صورتك الأخرى فى اللوفر،

وأحس بأنى أسير سحرك حتى الموت. أمام لوحاتك يا رمبرانت لا أشعر بأى تعب ذهني، ولست بحاجة إلى نقلة روحية، فأنا في مجال كله صحة وعافية، أمام المسطاح الذي هو لا شيء، وهو كل شيء. في صورتك الشخصية أغوص إلى أعماق سريرتك، أمسك خلال العينين المفتاح الذي يفتح لي مغاليق الأسرار وراء واحد من المائة باب وباب»..

«وأنت يا ألبرخت دورر، حبوت إليك حتى عرفتك منذ البناكوتيك في ميونيخ، ولكنى لم أبلغ سر تطورك. هل العبقرية هي حقاً مواصلة عمل بطيء؟ ولكن البطء يضيف على الإنجاز الفني صلابة وتخشباً بينما ترى في فنك تطوراً وتحولاً متواصلًا، مع دقة الملاحظة العلمية في عصر ربما كنت فيه من أعمق العلميين، وتصنع يداك مع هذا عملاً على قدر هائل من قوة التعبير. كيف أنسى رسومات «الفارس والشيطان والمنون» و «القديس هيرونيموس» و «أربعة فرسان الأبوكالبتس» (حلم يوحنا الإنجيلي)، ثم لوحات الرسل الأربع، وصورتك في شبابك. أي عالم خاص بك أبدعت!» !

«حقاً، نحن حيال اثنين من الفنانين اتخذ كل منهما إلى الخلق والإبداع سبيلاً على طرفي نقيض من الآخر: رمبرانت ودورر» 1
ونمزوج من تعليقي على المؤتمر الأفخاريسطي بتونس عام ١٩٣٠، وقد سافرت إلى هناك لأعمل شهراً في محطة سالمبو البحرية بضواحي تونس. كنت أسكن في فندق فرنسي بتلك الضاحية:

«شعورى هنا يغلب عليه الكره للأوروبيين المستعمرين. وقد تأملت يوم عيد الفصح ذلك الجمهور النسوقى، برغم ثرائه، يتغدى بالفندق حيث أقيم. دهشت أن يعتبر هؤلاء الناس أنفسهم أرقى من أهل البلاد» وأنزل إلى المدينة فى أوقات الفراغ لأتجول فى تونس الخضراء، ثم أنتهى إلى كتيبى أمام جامع الزيتونة أتحدث إليه وإلى زبائنه، وأقتنى من مكتبته بعض الكتب العربية (الأيام لطف حسين، وزينب لمحمد حسين هيكل إلخ) وهزنى الشوق إلى دخول «حمام السوق» التقيت فيه بطلبة من جامعة الزيتونة أطلعونى على موقف الشعب التونسى من الحكومة الحامية، وحدثونى عما يزمعون القيام به من مظاهرات احتجاجاً على عقد مؤتمر دينى مسيحي بالمدينة الإسلامية.

«تونس فى ٢٣ أبريل ١٩٣٠: جلست إلى صاحبنى الكتيبى أمام جامع الزيتونة بعد جوله طويلة حتى بطحاء الحلقاوين، وعرفت عنده الكثير من عواطف الأهلين نحو المصريين حباً، ونحو المستعمر قلى وكرهاً. الحضارة! هل من حقها أن تدخل حيث تريد، وأن تعلم وتربى وتدرّب فى سبيل تقدم الشعوب؟ ربما!»

«ولكن الاستثمار هو الأساس الاستعماري، وللفرنسيين طريقة فى الاستثمار تسعى نحو جعل الشعوب المغلوبة جزءاً من فرنسا، مثلما فعلت فى الجزائر حين حولتها إلى مقاطعة فرنسية، فأصبح الإيطالي والمالطى واليهودى فيها فرنسيين يتمتعون بكل الحقوق المدنية

الفرنسية، وبقي الجزائري المسلم خارج نطاق الوطن الفرنسي. وبهذا
قضوا على اللغة والعادات وشخصية الشعب الجزائري».

«ومع أن تونس حماية فحسب، فإن فرنسا دائبة وراء جعلها قطعة
منها. ولكن ظهر لى أن فى تونس روحاً من المقاومة أحسب أن ستكون
لها الغلبة فى النهاية. فها هى ذى فرنسا العلمانية تسمح للمؤتمر
الأفخاريستى أن يجتمع فى ضاحية قرطاج، وترغم حكومة الباي على
دفع إعانة لإعداد هذا المؤتمر الدينى المسيحى فى بلد إسلامى».

«أجل لست أنسى المظاهرات التى قامت فى تونس احتجاجاً على
عقد هذا المؤتمر، وقمعت بالقوة. ومنظر عساكر السنغال على جانبي
طريق المندوب الفرنسى وعلى يمينه مندوب الكرسى الرسولى فى
موكب الإثارة والتحدى. والسفن تدخل إلى حلق الوادى محملة
برجال الأكليروس القادمين إلى المؤتمر يرتلون أهازيجهم الدينية.
تلك هى صورة فرنسا كما تراءت لى فى تونس. فرنسا التى تزعم
فوق أرضها أنها علمانية وتحفظ بشعار الجمهورية الأولى: الحرية
والإخاء والمساواة!»

هذه الفقرات التى اخترتها عفواً قد تلقى بعض الضوء على أنواع
المؤثرات التى كانت تعمل فى نفسى، فمن كتاب، إلى حفلة موسيقية،
إلى تسجيل ظاهرة اجتماعية أو سياسية. وقد أتأمل على البعد موقف
بلادى الراحة تحت الاحتلال الأجنبى فأقول:

«لا شك أن تعاقب الحكام الأجانب على بلادى - وجلهم غاشم -
- كان يमित فيها كل حياة. ومن المؤكد أن ما عمله محمد على لم
يكن إلا لمجد نفسه وفكرة التوسع الحربى. وما صنعه إسماعيل ليس
سوى طلاء بقصد الظهور بمظهر المتمدنين.. يجب أن يتعلم التلاميذ
التاريخ الحقيقى لهذه البلاد فى العصور الحديثة، وأن يفهموا الحركة
العرايية على وجهها الصحيح.. يجب أن يقود أقدار هذه الأمة رجال
فى شبابهم وعنقوان قوتهم، شخصيات نادرة تجمعها الصدفة لتقود
أقدار البلاد. وعلينا أن نعمل كثيراً للنهوض بها. وما أراه الآن على
البعد ليس كافياً، فمازلنا نغضى عوراتنا بأوراق الشجر، لم نفهم بعد
ما علينا أن نفعل».

«هذا الفلاح! فريسة كم من الجنسيات: الإنجليزى واليونانى
والإيطالى والفرنسى والتركى والباشا المصرى والأفندى. أمة تريد
الحياة، ولا تعرف سبيلها إلى الحياة لأنها لم تجد الرجل الذى
يقودها». (باريس فى ٢٦ يوليه ١٩٢٦).

توضح المذكرات خطواتى على الطريق الوعر، ومحاولتى ركوب
أكثر من فرس فى آن واحد. كانت حياتى سعيدة فى ظاهرها، قاسية
فى صميمها. يتقاسمها الواجب الأول، وهو دراسة العلم، دين الدولة
على، ثم متابعة نزعات محمومة كلفاً بالفن والأدب، مع فحص المجتمع
حولى، والنفاذ إلى السياسة الدولية، يمينة ويسرة. كنت أطلع فى

الصباح صحيفة يسارية، وبعد الظهر جريدة الرأسمالية «الطان» أكبر الصحف الفرنسية.

ولقد أدركت منذ أول لحظة - مما سبقت الإشارة إليه في تشبيهه حالي بابن يتنازعه أبوان انفصلا عن بعضهما - بأنه من أصعب الأمور إقامة توازن بين الواجب الأول، والنزعات والنزوات. شبيهه بالموازنة التي حققتها بين أفكار أهل اليمين وأهل اليسار في السياسة. وأمر السياسة سهل، إذ لم أكن أكثر من متفرج، لا تشده إليها سوى فكرة العدالة الاجتماعية، والحد من شراسة رأس المال، وجهود أريستيد بريان في حملته التاريخية من أجل السلام، يقرن اسمه أنا باسم كيلوج وأنا آخر باسم شتريزيمان. كنت مدركاً تمام الإدراك المأزق الذي وضعني فيه تعدد نزعاتي، وشراھتي غير العادية نحو المعرفة، مقدراً أنني لن أستطيع طويلاً تحقيق التوازن في حياتي.

ولقد أعانني على اجتياز محنتي، والاحتفاظ ببعض التوازن أمران: الأمر الأول: إقامتي وسط شعب يحكمه العقل لا العاطفة - ويبدو قولي عجيباً لمن لا يعرف الفرنسيين في صميم حقيقتهم، لأنه يقارن دائماً بين سرعة إثارتهم، وبين البرود البريطاني - في بلد حبه الطبيعة بالتوازن: شعب جاد عامل، ولكنه من أكثر الشعوب إقبالا على متع الحياة، حسياً وذهنياً وعاطفياً. شعب آلف بين طبيعته الزراعية وتطوره الصناعي، فلم تطغ الصناعة عليه طغيانها على إنجلترا. بلاد

تجمع داخل حدودها الأراضى المنبسطة والجبال التمامخة، تشرف على ثلاثة أبحر، طبائع أهلها شمالية فى الشمال، وهم فى الجنوب أقرب إلى أهل البحر الأبيض المتوسط.

الأمر الثانى الذى ساعدنى على الخروج من المأزق بين العلم والفن والأدب شىء لم أك أتوقعه، أنا الذى سلخت سنوات من عمرى أدرس الطب وأمارسه ثم طرقت العلم من أبوابه. حدث هذا الشىء بفجائية درامية، لو صنعها مؤلف تمثيلى لدمغه النقاد بالافتعال، وهو أننى عشقت العلم، وما زلت مقيماً على حبه. ويرجع الفضل كل الفضل إلى إقامتى على شاطئ البحر ببلاد البريتانى، أشتغل بمعمل من أهم المعامل البحرية الفرنسية، بقرية روسكوف، فى إقليم الفينستير.

حدث ذلك فى صيف سنة ١٩٢٧، وكان برنامجى أن أعمل مع أستاذ الأحياء المائية بجامعة تولوز فى محطة بيولوجية صغيرة بأعلى جبال البرينيه على ضفاف بحيرة أوريدون. ولظروف خاصة لم يتحقق هذا البرنامج، وقضيت بعض الصيف سائحاً عادياً فى البرينيه. ولعلى فى قرارة نفسى أردت أن أعوض ما فاتنى على ضفاف بحيرة أوريدون فسافرت من أقصى الجنوب الغربى إلى أقصى الشمال الغربى، من كوتريه ولورد وبوجبال البرينيه حتى البريتانى فى رحلة طويلة كثيرة التنقل بين القطارات، أظنها استغرقت أكثر من ثلاثين ساعة. وعندما وصلت إلى روسكوف أحسست كأنى حقاً بلغت منتهى الأرض «فينستير».

وفى روسكوف، أمام أحواض الأكواريوم، ثم على ممتد الشاطئ الذى يغطيه المد ويعريه الجزر إلى فراسخ وفراسخ، والأسقاذ المقيم يقود خطانا بين أعشاب الألجا، نقلب الصخور، ونجمع الأحياء لفتعرف عليها فى مواطنها...

أحسست لأول مرة، أنا ابن دروب القاهرة القديمة، الذى لم ير البحر قبل سن العشرين، وكأننى خلقت للبحر وحياة البحر ودراسة البحر. والعجيب أننى بعد نحو أربعين سنة من صيف ذلك العام مازلت أحن إلى تلك البلاد البحرية الشمالية ذات التقاليد العتيقة، وأعود إلى ارتيادها كلما سنحت الفرصة.

أطلقت إقامتى ذلك الصيف من خمسة عشر يوماً إلى شهرين. وفى محطة روسكوف البحرية بدأت محاولتى الأولى فى البحث العلمى بدراسة وسيلة بعض الديدان البحرية فى بناء مساكنها الكلسية. وإذا كان ذلك البحث قد سمرنى إلى جدران معملى وربطنى بالميكروسكوب والأكواريوم والمكتبة، فإن تجوالى بشواطئ البريقتانى يعريها الجزر، دراسة لأحياء القاع وتوزيعها الأيكولوجى، كان هو أيضاً ظاهرة من ظواهر الحب العميق للملاحظة العلمية.

تقول مذكراتى: «فى روسكوف تكشف ميلى الشديد إلى العلم، وذلك لأننى خبرت لأول مرة جمال الملاحظة المباشرة، وتجلى لعينى فقر الدراسة «إن فيترو» (فى معنى خلف الزجاج). هنا فى روسكوف

نمت فجأة ملكة البحوث البيولوجية، بحكم جو المباراة العلمية بين مجموعة من شباب الأمم تستضيفها المحطة المشهورة كل صيف. بدأت هنا بحثى الأول، وأرجو ألا يكون الأخير، يعد أن انزاح الغطاء عن عيني لأدرك جمال الحياة العلمية».

أى إن التوازن بين الواجب (العلم) والحب (الفن والأدب)، وهو الذى حاولت تحقيقه بقوة الإرادة، لم يعد بحاجة إلى تلك الإرادة، ما دام العلم هو أيضاً قد استقر بين شغاف الفؤاد. فلم يعد الانتقال من الفن إلى العلم أشبه بالعودة من جو الحرية الطليق إلى قشلاق النظام والواجب، إذ تحولت حياتى منذ تلك اللحظة إلى هيام متكامل.

ومع أنى قد انصرفت فى عشر السنين الأخيرة إلى الفن والأدب، بحكم ما ألقى على عاتقى من أعباء رسمية وشبه رسمية، فإن حبى للعلم باق لم يضعف. أنظر إليه اليوم بشيء من الحسرة على بعباده، وقد أمسى عندى فى حكم الحبيب الغائب أذكره بكرة وعشياً، وكل رجائى ألا يكون العلم قد طوانى من ناحيته فى بوادى النسيان.

خاتمة مطاف طويل

حان

ختام هذه الحقبة من حياتى الأوربية، إلا أن أنقل هنا فصول كتابى «سندباد إلى الغرب»، وكلها صور وانطباعات وتأملات من الحياة فى صميم الحضارة الغربية، أو أن أعيد كتابة رحلاتى خلال سنى التحصيل، من واقع مذكراتى، وليس هنا مكانها.

فلنتخيل فتى خرج من بلاده لأول مرة سنة ١٩٢٥، وأنه على وشك العودة بعد خمس سنوات من الإقامة فى بلاد الغرب، ماذا يكون شعوره حيال تطوره العقلى والروحي؟ لا أظنه تغير كثيراً فى مظهره أو مخبره، ولو أنه حقق بالفعل ما توقع بعضه قبل السفر بالاطلاع والخيال، مع كلف صادق بالحضارة الغربية.

ومع ذلك فأنت تذكر كلمة وردت فى مذكراته يقول فيها لى وصول سفينته الأولى إلى مرسيليا: «ماذا أفعل عند النزول إلى البر، وأتى أذهب، وكيف أسافر؟»، وتذكر تعليقى الساخر على هذه الكلمة بقولى: «سؤال عجيب من طبيب شاب فى الخامسة والعشرين من عمره!».

أتعرف كيف عاد من باريس إلى القاهرة فى ختام بعثته التعليمية، وكم من الزمن استغرقت رحلة العودة هذه، فى مقابل ستة الأيام التى نقلته من القاهرة إلى باريس؟

لقد غادر باريس نهائياً في ٣٠ ديسمبر ١٩٣٠، فلم يصل إلى القاهرة إلا في أوائل فبراير ١٩٣١. كلا، لم تكن ظروف حرب عالمية دارت به سفينته حول كيب هورن أو رأس الرجاء الصالح. كل ما في الأمر أنه عبر الحدود الفرنسية الألمانية إلى كولونيا ودوسلدورف: «دوسلدورف في أول يناير ١٩٣١: عام جديد، نهاية سنوات التحصيل في أوروبا، وبدء الجهاد الأكبر.. قضيت أكثر الأمس في كولونيا أكتب بطاقات معايدة، وشاهدت مسرعاً الكاتدرائية القوطية: بناء ذو جمال مؤنث، ولكن فحص التفاصيل كشف لي عن ترميمات وإصلاحات كثيرة. ثم إنى لم أشعر أمام التماثيل بهزة الإعجاب العنيفة التي عرنتني أمام كاتدرائية شارتر».

ألقيت نظرة عاجلة على أجمل ما في كولونيا: كنيسة لها من النمط الرومانسكي، ثم سافرت إلى دسلدورف حيث نزلت ضيفاً على أسرة ألمانية صديقة، عرفت ابنة لها في باريس. احتفلت مع الأسرة بعيد رأس السنة حسب التقاليد والتقاليع الألمانية اللطيفة: ارتجال الأشعار الهزلية وتبادل هدايا ترفيحية، «وشوف بختك» في الرصاص الذائب عندما يتجمد بإلقائه في ماء بارد، ولبس الطراوير المسخرة.

وسعدت أسرة الراين بصديقها المصري عندما شاركها في أداء موسيقى، ربما كان صوناتة لموزار أو بيتهوفن.

وسافرت إلى هامبورج لأقضى أسبوعاً في مركز أبحاث المصايد يديره الأستاذ إرنباوم، وأياماً أخرى بالمعمل البحري المشهور في جزيرة

هلجولاند (وهي التي أزالها الحلفاء كلية في آخر الحرب العالمية الثانية) ، وزرت موانئ الصيد في بريمن وفيزر موند.

وغادرت هامبورج إلى كوبنهاجن استجابة لدعوة يوهان شميت العلامة الدانيماركي الأشهر، وهي دعوة تلقيتها على ظهر سفينة الأبحاث «دانا» عندما زارت ميناء تونس، وبعد أن استضاف المعمل البحري في سالمبو أعضاء البعثة برئاسة شميت.

زرت في معمله الذي أنشأه صانع بيرة دانيماركية، وأطلعني على أدوار تطور زريعة الحناشة من بحر السرجاس وسط الأطلنطي حتى بلوغها مصاب الأنهار في غربي أوروبا. ثم دعاني للغداء في منزله.

ومن كوبنهاجن عبرت السويد - مدخل البلطيق - إلى السويد، واخترقت أرضها إلى أوسلو لمقابلة العلامة الأقيانوغرافي يوهان يورت، ثم إلى برجن للقاء هانسن وسفير دروب وأوسكار سوند، ولقضاء ليلة بمعمل جزيرة هردالا البحري وسط فيورد برجن. وعدت إلى أوسلو، ومنها عبرت البلطيق إلى ميناء شتيتن، وبالقطار إلى برلين لزيارة الأكواريوم ومتحف العلوم البحرية. وسافرت بالقطار من برلين رأساً إلى البندقية، لأستقل السفينة «حلوان» إلى الإسكندرية، بعد شهر من مغادرة باريس.

هذا هو الشاب الذي تساءل عند أول وصوله إلى مرسيليا ماذا يصنع عند النزول إلى البر؛ وأنى يذهب، وكيف يسافر!

كنت في مصر أعالج القصة القصيرة ووضعت نص أوبرا. وحاولت ذات صيف بفرنسا كتابة قصة طويلة. وإذا بأسفاري في سنوات التحصيل وقد قادتني إلى أدب الرحلات، فخرجت كتبتي في أغلبها رحلات مادية في المكان، أو فكرية في الزمان: «سندباد عصرى» جولات في المحيط الهندي. «حديث السندباد القديم» دراسات الأساطير والقصص البحرية في الكتب العربية. «سندباد إلى الغرب» صور من حياتي في دنيا الحضارة. «سندباد مصرى» جولات في رحاب التاريخ، تاريخ أم الحضارة.

وقد أعدتني لكل هذه الكتب أسفار طالب البعثة الشاب إلى عدد من الأقاليم والأقطار، سجل أغلبها في مذكراته، ولم يؤلف فيها الكتب. والنهج الذي سلكته في رحلاتي الأولى قضت به ظروف عملي، فأصبح طبيعة ثانية لي. كانت أغلب تلك الرحلات على حساب البعثة التعليمية، فكان واجبي الأول فيها العناية بالناحية العلمية، ثم الانتفاع بأوقات الفراغ في زيارة المتاحف والآثار الفنية، والتاريخية، سواء في المدينة التي أقصد لغرض علمي أو في الطريق إليها. مثال ذلك تونس للاشتغال بمحطتها البحرية في ضاحية سالمبو. زرت متحفها التاريخي بقصر «الباردو»، ومتحف لافيغري بضاحية قرطاج، وسافرت إلى القيروان مدينة عقبة بن نافع لأزور مساجدها الأثرية العتيقة (سيدي عقبة، وأبي زمعة البلوي إلخ) وفي برلين، تهيأت

لى زيارة متاحفها الفنية الكبيرة الثلاثة: المتحف القديم، والجديد،
ومتحف الإمبراطور فرديريك. وكذلك الحال فى هامبورج وميونخ
وسالزبورج وفيينا. وحتى فى الترويج لم تفتنى زيارة قبر الموسيقى
إدوارد جريج، واكتشاف قصاصها الكبير يوهان بوير.

«برجن فى ٢٣ يناير ١٩٣١: ... ها أنذا فى بلادك يا إموندسن
ويانانسن. أنا ضيف عليك يا جريج، ياذا اللحن الرومانتيكى الحلو
فى مؤلفاتك للبيانو، أو للصوت أو للأوركسترا. ضيف عليك يا إيسن،
أيها الثائر! أوافق أنت من أنك هيات السعادة؟ لبطلتك نورا؟ (بيت
الدمية). انظر إلى العالم حولك الآن. أهى سعيدة المرأة فى المكاتب،
وأمام عجلة القيادة، وفيما تشغله من وظائف دنيا أو وسطى؟ أنا عرفتها
سعيدة، مختالة بنفسها، فى الجامعة، ولكنى لم ألاحظ تغييراً كبيراً
فى مثلها وآمالها. إنها لا تطلب عن حياة المرأة بديلاً. ولكن فى حرية
كاملة، دون خضوع لرجل...».

والشاعر القديم لم يهمل شأن الطبيعة فى أسفاره، لا سيما وأن أغلب
ما شهده كان غريباً عليه، مثيراً لدهشته: الجبال الشوامخ، والغابات،
ومساقط المياه، والتلوج والتزحلق على الجليد.

«بورتو - كورسيكا فى ١٥ سبتمبر ١٩٢٦: ... فإذا اتجهت ناحية
الشاطئ وجدت الغاية مكتسية ألوانها الخضراء زاهية ثم داكنة،
والجبال مشتعلة فى قناتها بتلك النار الحمراء المكونة من صخورها

وشمس الغروب، والظلال ترتفع لتحتل البقاع التي تودعها الشمس، والألوان البنفسجية تكسو الجبال، والضباب الخفيف الحالم يغطي بعض الجبهات».

«بين رمادية المغاور وخضرة الأشجار، وسط انعكاس آخر أنوار النهار في مياه البحر المائجة، والنهير المنسابة، وأمام زرقة الماء قرب الشاطئ، ولونه الذهبي عند مغرب الشمس، وراء السحب تضيء أطرافها بلون مذهب كأنها تزركتش ثوب العروس في هذا المساء.. في أصوات تلك السمفونية المؤلفة من حفيف الشجر وخرير النهر يضيع في البحر، والأمواج تتكسر فوق الصخر، فيقوم الرغاء الأبيض في أشكال سحرية كأن فينوس أخرى تخلق من الزبد.. في تلك الطبيعة الجميلة المتغيرة المتشكلة أفكر، وأطالع، وأتأمل الغروب».

لم أحدثك في قليل أو كثير عن الموسيقى، وكانت هي وحدها، إلى جانب العلم، شيئاً أصيلاً جداً في دراساتي. حرصت في كل مدن الحضارة على ارتياد الحفلات السمفونية والأوبرا وكنت عضواً بأوركسترا الهواة في تولوز وأوركسترا جامعة باريس.

وتشاء الصدفة أن أختتم سنوات التحصيل بمشاهدة أوبرا بيتهوفن الوحيدة «فيديليو»:

«برلين في ٢٩ يناير ١٩٣١: "فيديليو" بأوبرا بلدية شارلوتنبرج، أداء عادي، ماذا يهم؟ هؤلاء الألمان يعيشون موسيقاهم العظيمة،

وقيديليو عمل نبيل، تتخلله وتختمه رنة فرح عارم، برغم أزمة الفتاة ليونورا تتنكر في زي غلام لتتقذ حبيبها من الحاكم الظالم، وتختتم القصة بانتصار العدالة. موسيقى جديرة ببيتهاوفن مهما تقول القائلون تشكيكاً في قيمتها كأوبرا. فكرت بالصدفة العجيبة التي جعلتني أنهى سنى التحصيل في أوروبا بالاستماع إلى هذا العمل الكبير». وسافرت في اليوم التالي إلى البندقية رأساً، حيث شاهدت كنيسة سان مارك، ثم متحف الفن، لأترع روحى بروعة الألوان عند مصورى عروس الأدرياتيك: جيوفانى بللبنى، بالمافيو، جيورجىونى، فيرونيزى، تفتوريتو، تسيانو.

كانت رحلة الإياب إلى الوطن عن طريق الشمال الإسكندنافية، ثم عبر أوروبا، صورة مصغرة مركزية لسنواتى الخمس في بلاد الغرب. وأخيراً أتساءل: هل أغرتنى تلك الحياة بالبقاء هناك دائماً؟ يجب أن أصدق مع نفسى: لقد ساورتنى فى بعض فترات نزوة من هذا القبيل، وكان من حظى أن قد تحصنت ضد جرثومة الرومانتيكية - ولو لم أقض عليها تماماً - فاستطعت أن أخضع عواطفى الهوجاء لقياد العقل المفكر المدبر، وذلك بفضل المنهج العلمى، والنظام الصارم الذى يقضى به. خاطبنى العقل بكلام كهذا: استسلامك للحياة الأوربية معناه أنك تجبن أمام قفر الحياة الذهنية والفنية فى مصر. ولا قيمة لحياة الاستسلام للذعة والرفاهية، حتى ولو كانت دعة الفن ورفاهية الثقافة.

الحياة جهاد يا صاحبي ، كتب على الجميع ، لا على الجنود وحدهم في
ساحات الوغى ، والبسالة ليس مكانها ميدان القتال وحده .

بهذا تكلم العقل ، وأخجل أن أضيف قولاً تلوكه الألسن حتى فقد
جديته : أنت ابن الوطن الفقير إلى الله تعالى ، لا شك أنه بحاجة إلى
كل فرد من أفراد شعبه مهضوم الحقوق من السماء والأرض ، والوطن
أسدى إليك معروفاً ، مهما صنعت حتى آخر رمق لك في الدنيا فلن
تستطيع الوفاء به .

المحتويات

٥	في ضباب الذكريات البعيدة
١١	رفقاً أنجشته
١٧	غرام في السيرك
٢٧	كشك الموسيقى
٣٥	ناظر المدرسة الحديثة
٤٥	شيكسبير في خان جعفر
٥٣	يقدم رجلا ويؤخر أخرى
٦١	عودة إلى كراسة الإنشاء
٧٣	من الفوائد الفكرية إلى القصة المصرية
٨٥	قصة شغفي بحضارتنا الأولى
٩٧	يدخل هواة المسرح
١٠٥	الموسيقى الصعبة
١١٣	أفندية بحق وحقيق
١٢٣	يا عم حمزة احنا القلامدة
١٣٣	زاوية العميان
١٣٩	طبيب العيون ، و عيون السمكة

١٤٥ البعثات وما أدراك ما البعثات
١٥٥ إنما الدنيا مسرح كبير
١٦٣ طالب البعثة التعليمية
١٧٣ أهلاً وسهلاً بالأحبنا
١٨٣ الخطوات الأولى بباريس
١٩٣ دراسة وبحوث وتحصيل حضارة
٢٠٣ خاتمة مطاف طويل

تَنْهِيَةٌ عَادَةُ الْقِرَاءَةِ

عِنْدَ الْأَطْفَالِ

يَعْقُوبُ الشَّارُونِي

العدد

القادم

اشترك في سلسلة اقرا تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٤٨ جنيهاً.

- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٦٦ دولاراً أمريكياً.

- الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكياً.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الاشتراكات
بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة اكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة

رقم الإيداع	٢٠٠٥/٨٧٠١
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-6804-6

١/٢٠٠٥/١٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)